تقريراتٌ

على

"تطهيرِ الاعتقادِ عنْ أدرانِ الإلحادِ"

تصنيفُ:

العلامة: مُحَّمد بن إسماعيل الصَّنْعَانِيّ

من أمالي فضيلة الشيخ:

فيصل بن قزار الجاسم

-الشيخ لم يراجع التفريغ-

أخرجه من مادته الصوتية، واعتنى به:

صالح بن مثيب العبدلي

S٧٩٢٣٥٢٣@gmail. com

مقدِّمة الشارح

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، أما بعد:

فبين أيدينا رسالة معنونة بـ"تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد" لمحمد بن إسماعيل الصنعاني -رحمه الله- المتوفى في السنة الثانية والثمانين والمائة والألف للهجرة، والصنعاني مشهور ومعروف من علماء اليمن وهو صاحب كتاب سبل السلام، وهو معروف في ترجمته -رحمه الله- أنه كان زيديًّا ثم ترك هذا المذهب وصار إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وكانت له -رحمه الله- جهود عظيمة في نشر التوحيد والدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، وقد دعا إلى ما دعا إليه الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب -رحمه الله- قبل الإمام أو تزامن مع وقته لأنه يكبر الإمام -رحمه الله- بست عشرة سنة، فإنه وُلد في السنة التاسعة والتسعين والألف للهجرة، وله رسائل -رحمه الله- وجهود عظيمة في الدعوة إلى توحيد الله -تبارك وتعالى- لكن لم ييسر له ما يُسر للشيخ -رحمه الله- من الناصر، ووجد أيضًا من وافقه في هذه الدعوة في اليمن وهو حسين بن مهدي النُّعْمي -رحمه الله-، وكان علماء الدعوة يستشهدون بكلام الصنعاني وبالنعمي وبغيرهما من علماء أهل السنة والجماعة الذين كانوا يدعون إلى التوحيد الخالص وإلى نبذ الشرك، ومن جملة الرسائل التي كتبها -رحمه الله- في ذلك هي هذه الرسالة المعروفة بـ"تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد"، بيَّن فيها -رحمه الله- حق الله -جل وعلا-، وشرح توحيد الألوهية، وذكر الشرك وفصله -رحمه الله.

ومعروف أن الصنعاني -رحمه الله- كان قد وقف على دعوة الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب -رحمه الله- فامتدحها وأثنى عليها، وقال في أبيات له في مطلعها:

سلامي على نجد ومن حل في نجد ... تسليمي على البعد لا يجدي

وجاء فيها:

قفـي واسـألي عـن عـالم حـل **بـه يهتـدي مـن ضـل علـى مـنهج**
مُحَّد الهـادي لسـنة أحمـد **فيـا حبـذا الهـادي ويا حبـذا**

إلى آخر الأبيات -رحمه الله- في الثناء والمدح لدعوة الإمام مُحَّد بن عبد الوهاب -رحمه الله- لما رأى كتبه ورأى دعوته.

ثم بعد ذلك ذُكر بأن الصنعاني رجع عن مدحه للإمام مُحَّد بن عبد الوهاب -رحمه الله- وكتب أبياتًا في الرجوع، ومما قال فيها: "رجعتُ عن النظم في قلتُ في النجدي..." إلى آخر الأبيات، وهذه القصيدة التي كتبها قد ذكر في مطلعها بأنه قد جاءه من أخبره بالغلو في دعوة الإمام مُحَّد بن عبد الوهاب، وأنه قد جاءه رجل اسمه مربد بن أحمد التميمي من الحريملاء، وهذا كان قاضيًا في حريملاء ثم عاد الدعوة وفر من نجد كراهية لهذه الدعوة، وذهب إلى اليمن وهو الذي وشى إلى مُحَّد بن إسماعيل الصنعاني -رحمه الله- وذكر له أشياء من الافتراء والكذب على الإمام وعلى الدعوة، وذكر الصنعاني -رحمه الله- بأنه قد جاءه مربد -في الأبيات- وأن مربدًا هذا أطلع الصنعاني على كتب ورسائل للإمام مُحَّد بن عبد الوهاب يُكفر فيها جميع أهل الأرض، وأنه قد ذكر له بعض نجد وسمى رجلًا اسمه عبد الرحمن النجدي بأنه ذكر له قصص الغلو وتكفير المسلمين.

• **الشاهد:** هذه القصيدة التي يقال إنه قد رجع فيها عمَّا كان عليه قد شرحها حفيد الصنعاني، والعلماء مختلفون هل هي ثابتة أو غير ثابتة؟ ولسليمان بن سحمان -رحمة الله عليه- رسالة في إنكار هذه القصيدة وبيان أنها مدسوسة على الصنعاني وأن الذي دسها هو حفيده وكان هذا كارهًا للدعوة وأنه دس هذه القصيدة، فذكر -رحمه الله- في رسالة له بعنوان "تبرئة الشيخين الإمامين عن تزوير أهل الكذب والمين"، يعني

يبرئ الإمام محمد بن عبد الوهاب والصنعاني عما زوره عليهم أهلُ الإلحاد وأهلُ الكفر، وذكر أدلة -رحمه الله- في رسالته تبين بأن هذه القصيدة لا يصح نسبتها للصنعاني.

والحقيقة أن المسألة مختلف فيها، بمعنى أن هناك من أنكر القصيدة وهذا كثير كالشيخ سليمان بن سحمان وله رسالة في هذا وغير ذلك، وله شواهد وأدلة يذكر أنها تدل على ذلك، ومن ذلك هذه الرسالة؛ لأن الرسالة قد طُبعت قبل وفاة الصنعاني أظن بسنتين أو ثلاث، وهذه الرسالة كما سيأتي فيها أبيات من القصيدة التي مدح فيها الصنعاني الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-، قال ابن سحمان: فلو كان رجع عنها لما كُتبت هذه الرسالة في آخر حياة الصنعاني وفيها الأبيات التي فيها مدح الإمام النجدي محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-، وذكر حال شارح الأبيات، وذكر شيئًا يتعلق بالنظم وأن النظم ليس نظم الصنعاني بل هو نظم ركيك... إلى آخر ذلك من الأمور.

وهناك من أثبتها كالشيخ عبد الله البسام -رحمه الله- في كتابه "علماء نجد في خلاف ثمانية قرون" لما ذكر ترجمة مربد وبين عداءه للدعوة أثبت ذلك وذكر أدلة على أن هذه القصيدة عن الصنعاني.

- **الشاهد**: بغض النظر عن ثبوتها من عدمه، لا شك أن المتأمل في القصيدة والذي ذكره الصنعاني -رحمه الله- في رجوعه أساسًا هو على الصنعاني لا له؛ لأن الصنعاني في القصيدة استند إلى رجوعه إلى أمرين قد نص عليهما في القصيدة وذكرهما أيضًا في مقدمة الأبيات، فذكر بأنه رجع عن مدح الإمام محمد بن عبد الوهاب لأمرين:

- **الأمر الأول**: ما ذكره له مربد، قال: وقد جعل مربد كذا كذا، وأخبرني من أحوال الإمام كذا وكذا، وأطلعني على كتب يكفر فيها الإمامُ محمد بن عبد الوهاب أهل الأرض جميعًا، وهذا أيضًا مضمن في الأبيات، وكذلك ذكر له رجلًا يسمى عبد الرحمن النجدي. طبعًا هذا يدل على أنه استند إلى ما ذكره مربد من الافتراء على

الدعوة وأنهم كانوا يكفرون أهل الأرض، وأنه وقف على رسائل جاء بها مربد للإمام يكفر فيها أهل الأرض.

أما الرسائل فكذب قطعًا، فهذه كتب الإمام موجودة منشورة ليس فيها شيء من ذلك البتة، وهذا أساسًا من الشبهات التي أثيرت على الدعوة، والشيخ -رحمه الله- تولى الرد عليها بنفسه في أول الدعوة، لما أثير بأنه يكفر أهل الأرض ويكفر المسلمين ذكر: "إني لا أكفر أحدًا من المسلمين، بل أشهد أن المسلمين عامتهم على التوحيد..." إلى آخر ما ذكر -رحمه الله- في رده. فهذه أظهر ما يبين أن الرسائل التي وقف عليها الصنعاني -إن ثبت رجوعه- أنها رسائل مختلقة على الإمام؛ وهذا التكفير بهذه الصفة لا يوجد في رسائل الإمام أبدًا لا الإمام ولا تلاميذه وأحفاده من بعده.

- **الأمر الثاني**: أنه استند إلى ما ذكره مربد وما ذكره النجدي، ومعلوم أن هذه من جملة الاختلاقات والكذب والافتراءات التي ذُكرت على الإمام -رحمه الله-. ومربد كان معاديًا للدعوة، أساسًا هو فر من نجد كراهية للدعوة، يعني الذي جعله يفر ويهرب من نجد هو بغض الدعوة، فحال الناقد هو حال مزرية -والعياذ بالله-، وهو رجل مخدوش في عقيدته أساسًا وفي توحيده فلا يمكن أن يُستند إلى أخباره التي افتراها على الدعوة. فلو فرضنا أن الصنعاني قد رجع عن هذا، فمستند الرجوع في الحقيقة باطل، وعلى هذا فالرجوع -إن ثبت- فإنه رجوع لوصول معلومات مغلوطة للصنعاني عن الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-.

ومن دلائل بقاء الصنعاني على عقيدته هي هذه الرسالة التي كانت تُطبع أو كانت تُخط فيها حياته قبل موته -رحمه الله- بسنة أو سنتين.

فهذه مقدمة مختصرة عما يتعلق بالصنعاني وبهذه الشبه؛ لأنه -للأسف- كان في الزمن السابق الذي يطعن في الدعوة أو في الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- أو في الدعوة النجدية السلفية وفي الدولة السعودية عمومًا كانوا أعداء الدعوة، يعني كان أعداء الدعوة من الصوفية والرافضة والمشركين والملاحدة واليهود والنصارى، هذا الذي عُهد في كتب أهل العلم أنه ما كان أحد يطعن في الدعوة إلا هذا. اليوم أصبحت نابتة تدعي الانتساب إلى السنة من طلبة العلم الجهلة الذين لم يأخذوا عن العلماء ولم

يتربوا على مناهج العلماء، فبدأوا يلمزون الدعوة، يعني من أناس في ظاهرهم أنهم يتبعون السنة فبدأوا يلمزون الدعوة بالغلو ويلمزون الدولة بالغلو وينسبون كتبهم للغلو ويقولون -مثلًا- الدرر السنية فيها غلو، وتواريخها التي كُتبت فيها كتاريخ غنام وابن بشر فيها غلو، وهذا -للأسف- يقوله أناس من المعروفين بالسلفية وبالدعوة للسلفية، وهذا في الحقيقة هو منشؤه أحد سببين:

- **السبب الأول**: الجهل بالدعوة وبتاريخها قطعًا، وأنا أجزم أن أكثر الذين تكلموا في هذا ممن ينتسب إلى السلفية لم يقرأوا أساسًا الدرر السنية، ولم يطلعوا على كتب إمام الدعوة، ولا على كتب سليمان بن سحمان خصوصًا لأن أكثر رسائله في الذب عن الدعوة. فإن هؤلاء نقلوا أو أخذوا كلام أناس فظنوه حقًّا.
- **السبب الثاني**: هو الجهل بمنهج أهل السنة والجماعة، نعم قد يكون رجلًا سلفيًّا ودكتورًا أحيانًا لكنه عنده أخطاء في العقيدة، وهذا معروف اليوم انتشار مذهب الإرجاء فيما يتعلق بالإيمان وما يتعلق بمسألة الشرك والعذر بالجهل والأشياء هذه ومظاهرة المشركين، وهذه كلها أخطاء مما يقع فيها بعض الدعاة هي منشؤها الخلل في عقيدة الإيمان، فلأجل اعتقادهم لبعض الأقوال والأصول الخاطئة وظن هؤلاء أنها من منهج أهل السنة والجماعة، لما رأوا في كتب أئمة الدعوة شيئًا من ذلك ظنوا أن هذا من الغلو، أعطيكم مثالًا: لما ذكروا بأن الرجل لا يُحكم بشركه حتى تقام عليه الحجة، والحجة ما هي؟ أن يوقف عليه وأن يُذب عنه الشبهات وأنه وأنه... وأن كل من وقع في الشرك الأكبر ولو كان يقرأ القرآن ولو كان يعيش في بلاد المسلمين ولو كان يسمع بالدعوة، هذا رجل لا يمكن يُحكم بشركه بل هو مسلم يعامَل معاملة المسلمين حتى نجلس معه جلسات نقيم عليه الحجة. فلما رأى أئمة الدعوة -رحمهم الله- يحكمون على كل من وقع في الشرك بأنه مشرك وأن أصل الحكم على الظاهر وأن قضية إقامة الحجة هذه نحتاجها لأجل العقوبة الدنيوية والأخروية وأما الحكم فالحكم على الظاهر قالوا هذا غلو، ومنشؤه الخلل أساسًا في فهم هذه المسألة.

❖ **هناك مسألة أخرى وهي مسألة مظاهرة المشركين:**

لما علقوا هذه بالقلب وقالوا إن الإنسان لو ظاهر المشركين ونصر ووقف في صف أهل الشرك ضد أهل التوحيد ينصر الشرك ويطمس راية التوحيد ويقتل أهل التوحيد ويقاتل مع أناس يسعون في صد التوحيد ورفع راية الشرك، والقتال أساسًا قائم على التوحيد والشرك، فهذا واقف في صف أهل الشرك يُعلي من أراد الشرك ويطمس التوحيد وراياته ويقتل أهله؛ أنه لا يكفر حتى يستحل ذلك بقلبه أو يكون قد أحب الكفار! إذًا لا بد أن يكون الكفر في القلب، وهذه قد كُتب فيها رسائل للأسف، وهذا مذهب الإرجاء، هذا قول المرجئة. فلما رأوا ابن غنام ورأوا ابن بشر ورأوا أئمة الدعوة يحكمون على من قاتلهم في ذلك الوقت من المشركين ويسمونه بالمشركين، فيقول ابن غنام مثلًا: غزا المسلمون المشركين فقتلوا منهم كذا، قال: هذا كتكفير المسلم فيها غلو. طيب ماذا نقول عمن يقاتل ضد التوحيد، يدعى إلى التوحيد يقول: لا، الشرك هو الحق، ويقاتل أهل التوحيد ويسعى بسيفه لطمس التوحيد وإعلاء راية الشرك! أي إسلام بقي؟! فوصف هذا بالشرك يقينًا أنه مشرك أساسًا، كيف لا يكون مشركًا. وكل الذين عادوا الدعوة أساسًا وقاتلوا: قاتلوا وهم مشركون مرتدون، إذا كان أبو بكر -رضي الله عنه- والصحابة قاتلوا الذين أقروا بالزكاة لكنهم منعوا أداءها لأبي بكر، قاتلوهم قتال مرتدين وأجمع الصحابة على أنهم مرتدون مع أنهم مقرون بالزكاة لكنهم أبوا دفعها فقاتلهم الصحابة على الردة وحكموا بردته، فكيف بمن قاتل دون التوحيد؟ كيف بمن يقاتل ضد التوحيد ويقاتل في صف أهل الشرك فهل يبقى شيء من الإيمان؟ لا يبقى شيئًا. فلما ظنوا أن مظاهرة المشركين أساسها ارتباطها بالقلب، وأن الإنسان مهما فعل وظاهر المشركين في أي صورة من صور القتال لا يكفر حتى يحب الكفر وأهله ويحب ظهورهم بذاتهم، فلما رأوا أئمة الدعوة مطبقين على أن من قاتل ضد التوحيد ورفع سيفه في قتل التوحيد وأهل التوحيد وطمس رايته أنه مشرك قال: هذا غلو.

وهكذا مثل هذه المسائل المتعلقة بهذه الأمور، ومنهم من يستند إلى نقد الشوكاني ونقد الألوسي ونقد كذا... فتجده يقول: لا، يعني كأنه يتعامل مع المسألة تعاملًا

منصفًا، يقول: لا يا جماعة أنا مع الدعوة وأنا أحب الدعوة ولست أنا الذي أنقدهم، قد نقدهم الشوكاني وقد نقدهم الألوسي وقد نقدهم الصنعاني وتراجع عن هذا، وهم في الحقيقة لم يحققوا لا قول الشوكاني ولم ينظروا في كلامه ولا في مدحه للدعوة ولا ما الذي استند إليه الشوكاني في هذا، وهذا بالخصوص لا أتكلم عن أناس يُظهرون الانتساب إلى السنة. أما الصوفية والرافضة هؤلاء خالصين منهم أساسًا، هؤلاء معادون للدعوة أساسًا. لكن أتكلم عن أناس يعني ينتسبون إلى السنة ومنكم من يعرف كثيرًا منهم، ولا شك أن هذا سببه الجهل أولًا الجهل بالشرع وبمنهج أهل السنة والجماعة واعتقاد بعض الأمور المتعلقة بالقصور في فهم أصل الإيمان منزلته ومنزلة العمل عند أهل السنة والجماعة، أو الجهل بتاريخ الدعوة.

ولأجل ذلك إن شاء الله ستخرج السلسة بإذن الله قد تكون قريبة جدًّا -إن شاء الله- فيما يتعلق بهذه المسائل: بتاريخ الدعوة، وتاريخ الإمام مُحَمَّد بن الوهاب -رحمه الله- على شكل موجز، وذكر الفوائد والعبر والدروس من الدعوة، وذكر خصائص الدعوة وأئمة الدعوة، وذكر الشبهات التي أثيرت على الدعوة، على سبيل الرسالة المختصرة غير الطويلة؛ لأنه اليوم أكثر الدعاة والشباب لا يقرأون لا كتب أئمة الدعوة ولا غير أئمة الدعوة، وإنما يسمعون بعض هذا الكلام، وذاك من المتعين ربما يعني كتابة رسالة مختصرة بحيث لو الإنسان قرأها ألمَّ فأصبح عنده إلمام بالدعوة عمومًا وبتاريخها وبأهم الأحداث التي جرت وبخصائصها وميزاتها وأهم الشبه التي أثيرت والجواب عليها والاستدلال لا سيما الذين ينتسبون في الظاهر إلى السنة، وهذه لعلها إن شاء الله تخرج قريبًا.

هذه مقدمة مختصرة فيما يتعلق بهذا الأمر، ونبدأ إن شاء الله مستعينين بالله.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، وهو المستعان، الحمد لله الذي لا يقبل توحيد ربوبيته من العباد حتى يُفردوه بتوحيد العبادة كلَّ الإفراد، من اتخاذ الأنداد، فلا يتَّخذونه ندًّا، ولا يَدْعون معه أحدًا، ولا يتَّكلون إلا عليه، ولا يَفزعون في كلِّ حال إلا إليه، ولا يَدعونه بغير أسمائه الحسنى، ولا يتوصَّلون إليه بالشفعاء: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة: ٢٥٥]؟

هذا الذي ذكره هو توحيد الله، وهو الذي بُعث من أجله الأنبياء، وهو توحيد العبادة، وأن لا يُتخذ مع الله -عزَّ وجلَّ- الند، والند هو النظير، وكل من صُرف له شيء من حق الله من خصائص الله فقد اتخذ ندًّا، سواء كان في الربوبية أو الألوهية.

﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[لقمان: ١١]، وأشهد أن لا إله إلا الله له ربًّا ومعبودًا، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، الذي أمره أن يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[الأعراف: ١٨٨]، وكفى بالله شهيدًا، وصلى الله عليه وعلى آله والتابعين له في السلامة من العيوب وتطهير القلوب عن اعتقاد كلِّ شين يشوب.

وبعد: فهذا "تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد" وجب عليَّ تأليفه، وتعيَّن عليَّ ترصيفه؛ لِمَا رأيته وعلمته يقينًا من عموم اتخاذ العباد الأنداد في الأمصار والقرى وجميع البلاد، من اليمن والشام ومصر ونجد وتهامة وجميع ديار الإسلام.

وهو الاعتقاد في القبور وفي الأحياء مِمَّن يدَّعي العلم بالمغيَّبات والمكاشفات، وهو من أهل الفجور، لا يَحضر لله مسجدًا، ولا يُرَى لله راكعًا ولا ساجدًا، ولا يُعرف بالسنَّة ولا الكتاب، ولا يَهاب البعثَ ولا الحساب.

فوجب عليَّ أن أنكر ما أوجب الله إنكارَه، ولا أكون من الذين يكتمون ما أوجب الله إظهاره.

إذًا ذكر هنا سبب التأليف، وهو أن سببه هو انتشار الشرك الأكبر في العبادة، والاعتقاد بأناس من أهل الفجور والكفر على أنهم أولياء. وتأملوا قوله: (**في الأمصار والقرى وجميع البلاد**)، أي لم يستثن بلدًا من البلاد من انتشار مظاهر الشرك، قال:

(**من اليمن والشام ومصر ونجد وتهامة وجميع ديار الإسلام**)، وهذه شهادة بأن ذلك الوقت قد انتشر الشرك وعم أرجاء المعمورة، ويأتيك أناس يقولون: يا أخي ابن غنام وأئمة الدعوة بالغوا في وصف حالة المسلمين في وقت الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب. ووصفوا كلام ابن غنام وغيره في انتشار الشرك هذا فيه نوع من الغلو، وأنا سمعته من أناس يقولون: فيه غلو ولم يكن الحال على هذا الوضع، وأنا أقول: لا، بل كان الحال على هذا الوضع، وهذه شهادة من عالم يمني ليس من دعاة دعوة الشيخ يشهد أن الشرك قد عم جميع البلاد وأن الذي دفعه إلى هذه الرسالة هو هذا الأمر، ولم يستثن بلدًا من البلاد لا الشام ولا مصر ولا تركيا ولا غيرها من بلاد المسلمين، وهذا هو الواقع. وقد يقول قائل: قد كان في نجد علماء، والد الشيخ مُحَمَّد أحد العلماء، جد الشيخ من أشهر علماء نجد، جد الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب بن سليمان، سليمان هذا أساسًا كان يُلقب بمفتي الديار النجدية، فهو كان علمًا، لكن العلم الذي كان في نجد كان علمًا فقهيًّا فيما يتعلق خاصة بالمذهب الحنبلي، ولذلك الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب -رحمه الله- لما أخذ العلم عن أهل نجد ما أخذ إلا الفقه، ولذلك لما رحل إلى المدينة خاصة وإلى الإحساء وإلى البصرة وغيرها أخذ عن أهل تلك البلاد علم الحديث وعلم اللغة، وذلك اللغة درسها أساسًا أين؟ في المدينة، وعلم الحديث درسه عند مُحَمَّد حياة السندي وغيره، فعامة الفنون غير الفقه أخذها أساسًا من علماء من خارج نجد؛ لأن العلم المنتشر في نجد وكان هو الذي يركز عليه هو علم الفقه، ولذلك انتشرت مظاهر الشرك على شكل واسع جدًّا، حتى إن العيينة التي وُلد فيها الشيخ -رحمه الله- وكان فيها جده وفيها والده كان فيها سبع عشرة شجرة - كما ذكر ابن غنام- تُعبد ويتبرك بها من دون الله، هذا في موطن ولادة الشيخ -رحمه الله-. نعم كانوا علماء فقه، ولذلك كل ما نُقل عنهم أساسًا في الفقه، والشيخ -رحمه الله- ذكر عن نفسه أنه لم يجد عالما في نجد يعرف حقيقة معنى لا إله إلا الله، وذكر وسمى أناسًا مشهورين من أهل نجد كالمويس وغيره ممن عرفوا في ذلك الوقت بالفقه وبالعلم وهو من أشهر علماء نجد، يقول: كل هؤلاء، كل ما لقيت لم يكن يعرف حقيقة معنى لا إله إلا الله، أي توحيد العبادة. وهذه قضية مهمة، نقول: نعم علماء

لكن في أي فن؟ أما في العقيدة فلا، وكذلك في التوحيد وفي الحديث وفي غيرها، أما الفقه وأصوله نعم.

فاعلم أنَّ ها هنا أصولًا هي من قواعد الدِّين، ومِن أهم ما تجب معرفته على الموحِّدين:

الأصل الأول

أنَّه قد عُلم من ضرورة الدِّين أنَّ كلَّ ما في القرآن فهو حقٌّ لا باطل، وصِدْقٌ لا كذب، وهدى لا ضلالة، وعلمٌ لا جهالة، ويقين لا شك فيه.

فهذا الأصل أصلٌ لا يتمُّ إسلامُ أحد ولا إيمانه إلا بالإقرار به، وهذا الأمر مُجمعٌ عليه لا خلاف فيه.

هذا الأصل، يعني معناه أنه لو حكم على شيء بشيء من الشرك أو الكفر أو الجواز فإن مرجعه إلى القرآن، بمعنى أن القرآن حجة، وبهذا كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يحتج على المشركين: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[الأنعام: ١٩]، وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- يكتب إلى الآفاق بالآية الواحدة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٦٤]، يبعث بهذه الآية وتترجم لمن بُعث إليه ككسرى وهرقل وغيرهم، تُترجم لهم ومع ذلك الحجة كانت مقامة عليهم ببلوغ هذه الآية والدعوة. فأراد أن يُبيّن بأن ما في القرآن حق، ولذلك القرآن لا يدل إلا على حق، فإذا دل على شيء أنه شرك، أنه كفر، أنه إسلام، فلا يمكن أن يُبطل بقول قائل ولا باجتهاد مجتهد.

الأصل الثاني

أنَّ رسلَ الله وأنبياءه من أوّلِهم إلى آخرهم بُعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله بتوحيد العبادة، فكلُّ رسول أوَّل ما يَقرَع به أسماعَ قومِه قوله: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف: ٥٩]، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[هود: ٢]، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[نوح: ٣]، وهذا هو الذي تضمَّنه قول "لا إله إلا الله"، فإنَّما دَعَت الرسلُ أُممَها إلى قول هذه الكلمة واعتقاد معناها، لا مجرَّد قولها باللسان.

إذًا بيَّن بأن الرسل إنما جاءوا لتوحيد العبادة، والتوحيد أنواع: منه توحيد الربوبية إفراد الله بأفعاله، لكن لم يكن هناك نزاع أساسًا، كما ذكر الله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[لقمان: ٢٥]، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾[يونس: ٣١]، فلم يكن ثمة نزاع لا من عهد آدم ولا إلى عهد النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يكن ثمة نزاع أساسًا في إفراد الله بالربوبية ولا بالأسماء والصفات، وإنما كان النزاع في إفراد الله -عزَّ وجلَّ- بالعبادة، وجميع الرسل الذين ذكر الله -عزَّ وجلَّ- جاءوا بتوحيد العبادة: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ النذر السابقين واللاحقين ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[الأحقاف: ٢١] أي هذه دعوة رسل كلهم: ألا تعبدوا إلا الله، وهو تفسير "لا إله إلا الله": ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ "لا إله"، ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾: "إلا الله"، أي أن "لا إله إلا الله" تفسيرها: لا معبود إلا الله، وليس لا خالق ولا رازق؛ لأن هذه أساسًا:

- **أولًا**: ليست من معاني الإله؛ لأن الإله هو المعبود، وهي من معاني الرب.
- **ثانيًا**: هذا يخالف ما في القرآن، فإن الله -عزَّ وجلَّ- بين أن دعوة الأنبياء كانت في ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وقال -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، وهذا معنى "لا إله إلا الله".

فبين بأن دعوة الرسل هي التوحيد، ولما ذكر الله قصص الأنبياء كل نبي يقول: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف: ٥٩]، وقال: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[هود: ١، ٢]، يعني القرآن كله مفصل على تفسير ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وهي "لا إله إلا الله"، فالأنبياء جاءوا بالدعوة إلى إفراد الله بالعبادة، والعبادة أفعال العبد، أي إفراد الله –عزَّ وجلَّ– بالعبادة بأنواعها القولية والفعلية والقلبية، والأنبياء جاءوا بالإقرار والعمل ولم يجيئوا بالإقرار فقط، يعني ما جاءوا بأن يقر الإنسان ثم يترك العمل، ولذلك لا تنفع "لا إله إلا الله" إلا بأن يقولها الإنسان وأن يعمل بمقتضاها، ما جاء الأنبياء بالإقرار فقط، ما قالوا: أقروا، لا، وإنما جاءوا بالعمل، ولذلك التوحيد عمل، نعم ويسبقه إقرار بالقلب واعتقاد به ثم يلحقه عمل، لكن الذي تراه أنت من الشخص ماذا؟ العمل، القول للسان والعمل للجوارح، وما في قلبه لا تدري به. فالأنبياء جاءوا وأرادوا من الناس وقبلوا منهم العمل، وليس مجرد أن يقروا ثم يعملوا على خلاف ذلك، وهذا معنى قوله: (إنه ليس المراد بها مجرد قولها اللسان).

ومعناها: هو إفراد الله بالإلهية والعبادة، والنفي لِما يُعبد من دونه والبراءة منه، وهذا الأصل لا مرية فيما تضمَّنه، ولا شكَّ فيه، وأنَّه لا يتم إيمانُ أحد حتى يعلمه ويحققه.

يقول: معنى "لا إله إلا الله" **(إفراد الله بالإلهية)**، بمعنى: جعلُه فردًا، أي جعلُه متفردًا لا شريك له في ذلك، هذا معنى الإفراد، وهو معنى التوحيد كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لمعاذ: «ثم ادعهم إلى أن يوحدوا الله»، فالتوحيد هو جعل الله –عزَّ وجلَّ– واحدًا لا شريك له، والإفراد كذلك جعله فردًا واحدًا لا شريك له.

(بالإلهية والعبادة)، الإلهية إذا نسبت إلى الله تسمى بالإلهية، والألوهية هو استحقاق العبودية، فالإله هو المعبود الذي يذل له ويتعبد له وتأله القلوب والجوارح ويتوكل عليه ويناب إليه، هذا هو الإله لغة وشرعًا، ويسمى بتوحيد العبادة بالنسبة إلى أفعال العباد، أي إفراد الله –

عزَّ وجلَّ- بأفعال العباد، ولذلك العلماء يعرفونه بأنه إفراد الله بأفعال العباد التي هي العبادة، فإذا نُسب إلى الله سمي بتوحيد الألوهية، وإذا نسب إلى أفعال العبد سمي بتوحيد العبادة؛ لأن العبادة فعل العبد، فعل العبد لمن؟ لله، أن يجعل عمله لله وعبادته لله -تبارك وتعالى-، يقول: هذا معنى التوحيد.

قال: (**والنفي لما يعبد من دونه**)، أي لأن التوحيد لا بد له من إثبات ونفي، فإن "لا إله إلا الله" إثبات ونفي، "لا إله" نفي الألوهية عما سوى الله، وهذا معنى الكفر بالطاغوت: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة: ٢٥٦].

وهي البراءة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف: ٢٦، ٢٧]، ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ هذه معنى "لا إله"، ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ هذا معنى "إلا الله". والبراءة، ما هي البراءة؟ المجانبة والمباعدة والكفر واعتقاد البطلان، بمعنى أن يعتقد الإنسان بطلان عبادة كل ما سوى الله، وليس مجرد اعتقاد بطلان كل ما سوى الله أي اعتقاد بطلان كل عبادة لغير الله -جل وعلا-، وأن يعتقد بطلان الشرك، وليس هذا فقط بل لا بد فيه من التصريح بأن هذا شرك وأن فاعله مشرك، لا بد فيه من التصريح ولا بد فيه من المجاهدة أيضًا، ولذلك قال -جل وعلا-: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ الذين معه: الأنبياء ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾ إذًا قالوا، إذًا مسألة البراءة مسألة قولية أيضًا وإظهار ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾ أي متبرئون منكم، وهنا خطاب لمن؟ للمشركين، إذًا هو براءة من المشركين، ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي كذلك البراءة من المعبودات، أي نتبرأ من أن يكون ما سوى الله يستحق أن يُعبد، ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾[الممتحنة: ٤] العداوة ظاهرة بادية؛ هذه هي البراءة.

وهذا الكفر بالطاغوت: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾[البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، فالطاغوت كل ما عُبد من دون الله وأُلِّه من دون الله. ولذلك لا بد من البراءة، فمن لم يعتقد الشرك شركًا فهو مشرك كافر

ولو وحد الله؛ لأنه لم يحقق معنى البراءة، وقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم دمه وماله وحسابه على الله»، «كفر بما يعبد من دون الله» معنى "لا إله" تدل على هذا، لكن من باب التأكيد نص عليها أيضًا: «وكفر بما يعبد من دون الله».

إذًا من لم يعتقد الشرك شركًا والمشركين مشركين فهو كافر، يعني من جاء وقال: إن دعاء الموتى ليس بشرك! هذا كافر مشرك، ولا يقول في ذلك الاجتهاد، يقول: والله أنا اجتهدت ولم أره شركًا! بل هو مشرك، فمن لم يعتقد دعاء الموتى والاستغاثة بهم شركًا فهذا لم يتبرأ من المشركين، ومن لم يعتقد عبادة ما سوى الله -عزَّ وجلَّ- شركًا فهذا ليس بموحد لأنه لم يتبرأ. إذًا لا بد من البراءة، هذا الذي جاءت به الأنبياء: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص: ٥]، علموا أن "لا إله إلا الله" تقتضي نفي الألوهية عما سوى الله وترك الأنداد والبراءة منها. ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[الصافات: ٣٦]، فالمعنى أنه أراد ترك الآلهة والبراءة منها، ولذلك سموا البراءة من الكفر وأهل الكفر سموها سبًّا، ماذا قالوا عن النبي -عليه الصلاة والسلام-؟ قالوا: يسب آلهتنا ويسب آباءنا وأجدادنا. يعني هل كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يأتي لأبي لهب أو لغيره ويقول: ألعن أباك، أو: أبوك أحمق وجدك أحمق، هل هذا المراد به السب أي اللعن والشتم؟ لا، ما المراد بالسب؟ هو أنه قال: بأن دعاء غير الله شرك وأن كل عبادة لغير الله -عزَّ وجلَّ- شرك، فسموا ذلك سبًّا، أي كونه سلب الألوهية عما سوى الله، أي سلب عن الآلهة التي عبدوها من دون الله -عزَّ وجلَّ- على أنها شفعاء، سموا ذلك سبًّا، فقالوا: يسبنا، ومعنى أنه يسبنا أي يقول إنكم مشركون، ويسب آباءنا يقول إنهم مشركون. هذا هو السب الذي أرادوه، وإلا الرسول -ﷺ- ما سبهم باللعن والشتم والكلام الذي يسمى في عرفنا الآن سبًّا، ولذلك لما كفر بفعلهم وتبرأ منهم سبوا الله -عزَّ وجلَّ-، ولذلك ورد: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام: ١٠٨]. نعم.

الأصل الثالث

أنَّ التوحيد قسمان:

- **القسم الأول: توحيد الربوبية والخالقية والرَّازقية ونحوها، ومعناه: أنَّ الله وحده هو الخالق للعالَم، وهو الرَّبُّ الرازق لهم، وهذا لا ينكره المشركون ولا يجعلون لله فيه شريكًا، بل هم مُقرُّون به، كما سيأتي في الأصل الرابع.**

التوحيد قسمان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الإرادة والعمل.

توحيد المعرفة: يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، الربوبية مأخوذة من الرب، والرب هو الخالق الرازق المدبر المتصرف في الأمور، ويسمى بتوحيد الخالقية مثلًا والرازقية كما سماه، وهذا داخل في الربوبية؛ لأن الرب معناه الخالق الرازق المدبر المعطي المانع النافع الضار الذي بيده تصريف الأمور، فهذا لم يكن المشركون ينكرونه أساسًا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[لقمان: ٢٥]، ما كانوا ينكرونه أساسًا ولم يكن ثمة نزاع فيه، وإنما النزاع كان في النوع الثاني، وهذا توحيد المعرفة والإثبات، فإنها إفراد الله بأفعاله، أن تعتقد بأن الله هو الخالق وحده والرازق وحده والمدبر وحده والمعطي وحده لا شريك له وأن هذه أفعال الله، ولذا يسميه العلماء: إفراد الله بأفعاله وأسمائه وصفاته.

والتوحيد الثاني هو توحيد الإيراد الطلبي الذي هو عملي، وهو توحيد العبادة. نعم.

- **والقسم الثاني: توحيد العبادة، ومعناها: إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات الآتي بيانها، فهذا هو الذي جعلوا لله فيه الشركاء، ولفظ الشريك يُشعِر بالإقرار بالله تعالى.**

أن تعرف هذه العبادة، أي إفراد الله -جل وعلا- بأفعال العبد، بمعنى أن لا يُعبد إلا الله، بأن لا يتوجه العبد بأي نوع من أنواع العبادة بأنواعها إلا إلى الله، وأنه لو صرف نوعًا منها لغير الله كان مشركًا.

يقول: **(وهذا الذي جعلوا فيه الشركاء)**، شركاء لمن؟ لله، لو لم يكونوا يعبدون الله ما سُميت آلهتهم شركاء، بل كانوا متفردين، يعني لو كان هؤلاء المشركون لا يعبدون إلا إله واحدًا، فكلُّ قومٍ لهم إله، ما كانوا يسمون شركاء؛ لأنهم ما جعلوا لآلهتهم شركاء، لكن لأنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون غيره سُموا شركاء، وهذا يدل على أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون غيره. هم ما تركوا عبادة الله؛ لا، عبدوه، لكن المشكلة ماذا؟ أنهم جعلوا معه شركاء في العبادة، فيعبدون الله ويعبدون غيره. وقد يعبدون الله أكثر مما يعبدون غيره، وقد يعبدون الله -عزَّ وجلَّ- في كل أنواع العبادة ومع غيره يعبدونه في بعض أنواع العبادة، يعني لم يستوِ كل عبادة، ومع ذلك كانوا مشركين وكانت تلك الآلهة التي عبدوها من دون الله -عزَّ وجلَّ- شركاء. قالوا: لفظ الشريك يشعر بالإقرار لله تعالى، هذا إقرار بأنهم يعتبرونه بأنه إله معبود، لكن المشكلة أنهم لم يعتبروه الإله الحق ويبطلوا عبادة ما سواه.

فالرسل -عليهم السلام- بُعثوا لتقرير الأول ودعاء المشركين إلى الثاني، مثل قولهم في خطاب المشركين: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾[إبراهيم: ١٠]، و﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾[فاطر: ٣]، ونهيهم عن شرك العبادة، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[النحل: ٣٦]، أي: قائلين لأممهم أنِ اعبدوا الله، فأفاد بقوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أنَّ جميع الأمم لم تُرسل إليهم الرسل ولم تُبعث إليهم إلا لطلب توحيد العبادة، لا للتعريف بأنَّ الله هو الخالق للعالَم، وأنَّه ربُّ السماوات والأرض، فإنَّهم مقرُّون بهذا.

يقول: **(الرسل بُعثوا لتقرير الأول)**، أي بُعثوا لتقرير المشركين، أي أن تُقررهم، وهم يقرون بهذا، لكن بُعثوا للتذكير، فإذا أقروا به كان ذلك من أكبر الأدلة على إفراد الله بالعبادة، إذا قالوا بأن الله هو الخالق الرازق المانع المعطي المتصرف في الأمور فيقتضي أن يكون هو المعبود، ولذلك الله -عزَّ وجلَّ- يدلل على استحقاق العبودية بإقرارهم بالربوبية: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[يونس: ٣١]، إذا كنتم تقرون بأن الله هو فاعل هذه الأشياء أفلا تتقون

الشرك به في العبادة؟ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي في العبادة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١، ٢٢] أنه لا ند له في الربوبية، ولذلك قال: (**بُعثوا لتقرير الأول**) ليُقروا وهم مقرون به واستدلال به، (**ودعوتهم إلى الثاني**) إذا كنتم تُقرون بأن الله هو الخالق الرازق فيقتضي أن الله -عزَّ وجلَّ- هو... ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي في ربوبيته ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾[إبراهيم: ١٠] تشكون أنتم في وجود الله وأنه الخالق؟ ما تشكون بذلك، إذًا هو دعاكم لتوحيده. ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ طبعًا الجواب هذا استفهام تقريري، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟ الجواب ماذا؟ لا ليس هناك خالق، قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[فاطر: ٣] إذًا، إذا لم يكن ثمة خالق يرزقكم إذًا لا معبود يستحق أن يُعبد سواه. ولذلك جاء الأنبياء بنهيهم عن شرك العبادة، قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، ﴿كُلِّ﴾: نص في العموم، أي كل الرسل بُعثوا بهذه الدعوة أو بُعث إليهم بهذه الدعوة ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦] وهذا يفسر معنى "لا إله إلا الله" التي جاء بها الأنبياء، وأنه لا معبود بحق إلا الله. فلهذا يقول: إن جميع الأمم لم ترسل إليهم الرسل إلا للطلب بتوحيد العبادة لا للتعريف بأن الله هو الخالق لأنهم ما كانوا ينكرون، وإنما جُعل ذلك من باب التقرير لهم والحجة عليهم.

ولهذا لم ترد الآيات في الغالب إلا بصيغة استفهام التقرير، واستفهام التقرير هو أن تسأل السؤال الذي يقر المسئول بالجواب: أوليس فلان عالمًا؟ أوليس كذا؟ أساسًا لو لم يتخذه عالمًا ما تقول له أوليس فلان عالمًا؟ أنت ما تقول هذا الاستفهام إلا لما كان يُقر بالجواب، فتجعل إقراره أساسًا ودليلًا على ما تحتج به عليه، وهذا ما يسمى باستفهام التقرير.

ولهذا لم ترد الآيات في الغالب إلا بصيغة استفهام التقرير، نحو: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾[فاطر: ٣]؟ ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾[النحل: ١٧]؟ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠]؟ ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الأنعام: ١٤]؟ ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[لقمان: ١١]؟ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾[فاطر: ٤٠]؟ استفهام تقرير لهم لأنهم به مقرُّون.

ولذلك يقول العلماء: إن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، بمعنى أنه إذا أقر الإنسان بتوحيد الربوبية هذا يلزم منه أن يقر بتوحيد الإلهية، وأن توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية، إذا أقر بأن الله هو المعبود الحق فإن هذا لم يكن إلا بعد اعتقاده أن الله هو الخالق الرازق، فهو فرع. ولذلك من أقر بالألوهية تضمن إقراره بالألوهية إقرارَه بتوحيد الربوبية.

وبهذا يُعرف أنَّ المشركين لم يتخذوا الأصنام والأوثان ولم يعبدوها، ولم يتخذوا المسيح وأمَّه، ولم يتخذوا الملائكة شركاءَ لله تعالى، لأجل أنَّهم أشركوهم في خلق السماوات والأرض، وفي خلق أنفسهم؛ بل اتخذوهم لأنَّهم يقرِّبونهم إلى الله زلفى، كما قالوه، فهم مقرُّون بالله تعالى في نفس كلمات كفرهم، وأنَّهم شفعاء عند الله، قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس: ١٨].

إذًا وجه الاستشهاد هو الآية، يعني هو يقول إن المشركين ما اتخذوا هذه الأنداد على أنها تخلق وترزق، وما عبدوا عيسى وأمه على أنهم يخلقون ويرزقون، ولا الأصنام ولا الأوثان؛ وإنما اتخذوهم على أنهم يقربونهم إلى الله، فهؤلاء كلهم نيتهم حسنة من هذه الجهة، بمعنى أنهم يريدون التقرب إلى الله، لكن اتخذوا الشرك وسيلة للتقرب إلى الله، وإلا ما اعتقدوا فيهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾، أي يعبدون ما لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ﴾ المعبودون ﴿شُفَعَاؤُنَا﴾ ما

قالوا: هؤلاء هم الذين ينفعون ويضرون ويرزقون ويعطوننا ويمنعوننا، لا؛ ﴿شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس: ١٨]، فسمى اتخاذ الشفعاء شركًا ونزه نفسه عنه، فقالوا: إن هؤلاء شفعاؤنا، فهم عبدوهم لا على أنهم يخلقون؛ بل عبدوهم على أنهم شفعاء ووسائط يقربونهم إلى الله. إذًا اتخذوا الشرك وسيلة إلى الوصول إلى الله -تبارك وتعالى- ، وهذا هو شرك الأولين.

فجعل الله تعالى اتِّخاذهم للشفعاء شركًا، ونزَّه نفسَه عنه؛ لأنَّه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، فكيف يُثبتون شفعاءَ لهم لَم يأذن الله لهم في شفاعة، ولا هم أهل لها، ولا يغنون عنهم من الله شيئا؟!

كيف؟ هم عبدوهم على أنهم شفعاء، أي عبدوهم وتقربوا إليهم وصرفوا لهم العبادة على اعتقاد أنهم شفعاء، بمعنى: هم يقولون نحن أهل ذنوب ومعاصٍ وهؤلاء المعبودون لهم جاه أولياء صالحون ملائكة أو رسل أو أناس صالحون، فنحن نتقرب إليهم ليقربونا إلى الله، والله -جل وعلا- لم يثبت تلك الشفاعة، أي لم يثبت الشرك؛ بل أساسًا بعث الأنبياء للدعوة إلى ترك الشرك وإنكاره وقتال أهله، فكيف يكون ما بعث الله الأنبياء بإنكاره هو الوسيلة التي يُتقرب بها إلى الله؟

الأصل الرابع

- أنَّ المشركين الذين بعث اللهُ الرسلَ إليهم مقرُّون أنَّ الله تعالى خلقهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف: ٨٧].
- وأنَّه هو الذي خلق السماوات والأرض: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[الزخرف: ٩].
- وبأنَّه الرزَّاق الذي يُخرج الحيَّ من الميّت ويُخرج الميّتَ من الحي، وأنَّه الذي يُدبِّرُ الأمرَ من السماء إلى الأرض، وأنَّه الذي يَملك السمعَ والأبصار والأفئدة: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[يونس: ٣١]؟ ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[المؤمنون: ٨٤ – ٨٩]؟

أفلا تتقون الشرك؟ أفلا تتذكرون استحقاق الألوهية؟ ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾؟ كيف تصرفون عن عبادته وأنتم مقرِّون بأنه هو الذي يجير ولا يجار عليه وهو الذي بيده ملكوت كل شيء.

وهذا فرعونُ مع غلُوّه في كفره ودعواه أقبح دعوى ونطقه بالكلمة الشنعاء، يقول الله في حقّه حاكيًا عن موسى –عليه السلام–: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[الإسراء: ١٠٢].

يعني بمعنى أنك تقر في قرارت نفسك بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله، وهذه بصائر وأدلة، يعني أنك تدعي الألوهية وتدعي كذا وأنت تقر في قرارت نفسك بربوبية الله وبألوهيته –تبارك وتعالى–.

وقال إبليس: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[المائدة: ٢٨]، **وقال:** ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾[الحجر: ٣٩]، **وقال:** ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾[الحجر: ٣٦].

يعني إبليس رأس الشر يقر بربوبيته الله -تبارك وتعالى- واستحقاقه ويخاف من الله -جل وعلا-، لكنه أصر على الشرك وعصيان الله -عزَّ وجلَّ- والاستكبار عن أمره.

وكلُّ مشرك مُقر بأنَّ الله خالقُه وخالق السماوات والأرض وربُّهن وربُّ ما فيهنَّ ورازقُهم، ولهذا احتجَّ عليهم الرسل بقولهم: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾[النحل: ١٧]؟

(﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾[النحل: ١٧])، أنتم تقرون بأن جميع ما سوى الله مخلوقون، هل يستوي من يخلق ومن لا يخلق فتصرف العبادة لمن لا يخلق كما تُصرف لمن يخلق؟ لا يستوي.

وبقولهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[الحج: ٧٣]. **والمشركون مقرُّون بذلك ولا ينكرونه.**

هذا على سبيل التعجيز، يعني أنتم تقرون بأنهم ما يخلقون، بل حتى الذبابة لو اجتمعوا لما خلقوا شيئًا، فكيف يُعبد أحد أو يُجعل له شريك -جل وعلا- في العبادة؟

الأصل الخامس

أنَّ العبادة أقصى باب الخضوع والتذلل، ولم تُستعمل إلا في الخضوع لله تعالى؛ لأنَّه تعالى مُولى أعظم النِّعم، وكان حقيقًا بأقصى غاية الخضوع، كما في "الكشاف".

يقول: **(العبادة)** في اللغة **(هو أقصى باب الخضوع والتذلل)**، ولذلك سمي العبد عبدًا لأنه ذليل لسيده خاضع لأمره، ويقال: طريق معبَّد إذا ذُلل ومهِّد للسالكين، وأصل العبادة هو التذلل، لكن ليس مطلق التذلل؛ بل التذلل مع المحبة والتعظيم، لأنه قد يذل الإنسان لغيره ويكون خاضعًا مع بغضه وكراهيته له. وهنا الشيخ فسرها بأقصى الخضوع والتذلل، وزاد شيخ الإسلام بأنه لا بد أن يكون معه تعظيم وحب، وليس كل من ذل لشخص كان عبدًا له كما أنه ليس كل من أحب شخصًا كان عبدًا له حتى يجتمع الحب والذل، فذلٌّ مع محبة وتعظيم: هذا هو العبادة الصحيحة. ولعل التعريف الذي ذكر الشيخ على سبيل التعريف اللغوي، وإن كان اللغة تشهد لاشتراط الحب فيه.

(ولم تُستعمل إلا في الخضوع لله) أي العبادة لم تستعمل أساسًا لغير الله، أي لا تستعمل العبادة في حق غير الله، بمعنى: لا تكون إلا لله -تبارك وتعالى-، فهذا الخضوع وهذا الذل ليس إلا لله ولا يستعمل لمخلوق قط لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- هو المنعم وهو الخالق وهو الحقيق بأقصى غايات الخضوع؛ لأنه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾[النحل: ١٧]؟ فكل ما سوى الله لا يداني الله وليس نظيرًا لله -جل وعلا- ولا يقرب منه -تبارك وتعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]، فهو الحقيق بأقصى غاية الذل، إذا كانت العبادة في أصلها التذلل والخضوع من أحق الأشياء بالتذلل والخضوع؟ هو الله لأنه مولى النعم كلها: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل: ٥٣]، وهو الخالق وحده وهو الرازق وحده، فمعناه أن العبادة أساسًا لا تليق إلا بالله.

ثمَّ إنَّ رأسَ العبادة وأساسَها التوحيدُ لله الذي تفيده كلمته التي إليها دعت جميع الرسل، وهي قول "لا إله إلا الله"، والمراد اعتقاد معناها والعمل بمقتضاها، لا مجرَّد قولها باللسان.

يقول: (**إن رأس العبادة وأساسها التوحيد لله**)؛ لأن العبادة لا تسمى عبادة إلا بالتوحيد، أي أن الأنبياء ما جاءوا للدعوة إلى عبادة الله فقط؛ بل جاءوا إلى إفراد الله بالعبادة، ولذلك يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: "كل عبادة في القرآن فهي توحيد"، وفسر قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦] أي إلا ليوحدون؛ لأن العبادة إذا اقترنت بالشرك ليست عبادة شرعًا، ولذلك نفى الله العبادة عن المشركين مع أنهم يعبدون الله، لكن لما قرنوا بعبادتهم لله عبادةَ غيره كانت عباداتهم باطلة، قال -جل وعلا-: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[الكافرون: ١ - ٣]، مع أن المشركين كانوا يعبدونه ويصلون ويحجون ويتصدقون ويفعلون أشياء من العبادة، لكن لما كانت مقترنة بالشرك نفاها الله -عزَّ وجلَّ-، والله لا يقبل إلا ما كان خالصًا له: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»، ولذلك العبادة لا تسمى عبادة إلا إذا كانت خالصة، ومن أجل ذلك قال ابن عباس: "كل عبادة" أي كل ما أُمر به العبد من العبادة المراد بها التوحيد أي الإفراد بالعبادة، وعلى هذا نقول: الأنبياء هل جاءوا بالأمر بالعبادة فقط؟ لا، بالأمر بإفراد الله بالعبادة، ولذلك يذكر الله -عزَّ وجلَّ- الكفر بالطاغوت: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾[البقرة: ٢٥٦]، فالكفر بالطاغوت و"لا إله" كلها تبين أن العبادات التي أُمرنا بها هي التوحيد، ولذلك ما قال: أقروا بالله، جاء التوحيد: "لا إله إلا الله"، ما تقبل "إلا الله" إلا مع "لا إله" نفي الألوهية، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾[البقرة: ٢٥٦]. إذًا لا بد من التوحيد، وهذه العبادة التي هي العبادة الشرعية المقبولة عند الله، لا أن يكون الإنسان عابدًا لله. المشركون يعبدون الله ويصلون؛ بل قد يعبدون الله أكثر مما يعبدون الأنداد، وإذا اشتد بهم الكرب ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[يونس: ٢٢]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ﴾ أي نسيتم ﴿مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧]. لكن هل كان ذلك

محبوبًا؟ نقول: لا؛ لأنهم يقرون مع الله -عزَّ وجلَّ- غيره، وهذا معنى قول الشيخ -رحمه الله-: **(رأس العبادة أساسًا هو التوحيد لله)**.

ومعناها: إفراد الله بالعبادة والإلهية، والنفي والبراءة من كلِّ معبود دونه، وقد علم الكفار هذا المعنى؛ لأنَّهم أهلُ اللسان العربي، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص: ٥].

لما قال لهم النبي -ﷺ-: «**قولوا كلمة تدين لكم بها العرب وتعطيكم بها العجم الجزية**»، قالوا: كلمة! لك مائة كلمة، قال: «**قولوا: لا إله إلا الله**»، قالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ فعلم أن "لا إله" تنفي الألوهية عما سوى الله وتحصر العبادة، أنه دعاهم إلى توحيد العبادة لا إلى العبادة مطلقًا، وقالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[الصافات: ٣٦]. فعلم أن "لا إله" ترك الآلهة والبراءة منها: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف: ٢٦، ٢٧]، أبرأ من كل ما تعبدون إلا الذي فطرني، فإنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون غيره، فتبرأ من عبادة ما سوى الله إلا الله لم يتبرأ من عبادته، ثم قال -جل وعلا-: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ إشارة إلى الكلمة هذه ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[الزخرف: ٢٨]، قال بعض العلماء: هي "لا إله إلا الله" أي أن ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف: ٢٦، ٢٧] هو معنى "لا إله إلا الله" وهي التي ورَّثها إبراهيم -عليه السلام- لمن جاء بعده من الأنبياء والمرسلين، فإن الأنبياء والمرسلين جاءوا بعد إبراهيم كلهم من ذريته.

* * *

فصل

إذا عرفت هذه الأصول؛ فاعلم أنَّ الله تعالى جَعَلَ العبادةَ لَهُ أنواعًا:

- **اعتقاديَّةٌ: وهي أساسها، وذلك أن تعتقد أنَّه الرَّبُّ الواحِدُ الأَحَدُ الذي بيده الخلق، والأمر، وبيده النَّفعُ والضُّرُّ، وأنَّه الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، وأنَّه لا معبودَ بحقٍّ غيره، وغير ذلك مما يجب، من لوازم الألوهية.**

يقول: (**إذا عرفت هذه الأصول؛ فاعلم أنَّ الله تعالى جَعَلَ العبادةَ لَهُ أنواعًا**)، طبعًا عرفنا أن العبادة محض حق لله -تبارك وتعالى-، وأن الله -عزَّ وجلَّ- إنما أرسل رسله ليوحدوه في العبادة، وأن العبادة لا تكون عبادةً شرعيّةٍ إلا بالتوحيد، وأن معنى العبادة هو التوحيد؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- لم يأمرنا أن نعبده فقط، بل أمرنا أن نوحده في العبادة، فكُلُّ عبادة لا يوحد الله -عزَّ وجلَّ- فيها فليست عبادة.

ولذلك من أشرك بالله -عزَّ وجلَّ- في نوعٍ من أنواع العبادة، ولو بنوعٍ واحدٍ منها فهو مشرك، وعبادته لله -عزَّ وجلَّ- باطلة، ولذلك نفى الله -عزَّ وجلَّ- عن المشركين عبادتهم له؛ لأنها عبادة مقرونةٌ بالشرك.

ثم يقول -رحمه الله- ما معناه: اعلم أن العبادة التي أمرنا الله -عزَّ وجلَّ- أن نوحده فيها، وجاء الأنبياء كُلُّهم للدعوة إلى إفرادها بالله -تبارك وتعالى-، أن هذه العبادة أنواع.

وذكر الشيخ -رحمه الله- قبل ذلك بأن الله -عزَّ وجلَّ- إنما أرسل الرسل للدعوة إلى توحيد العبادة، وأن الأمم كانوا مقرين بأن الله -عزَّ وجلَّ- خالقهم، وأنه رازقهم، لم يجعلوا معه شريكًا في الخلق، ولا في الرزق، ولا في الإعطاء، ولا في المنع، وإنما كانوا يجعلون معه شركاء في العبادة، على أنهم شفعاء، ووسطاء، يقرّبونهم إلى الله.

ثم قال الشيخ -رحمه الله-: (**أنَّ الله تعالى جَعَلَ العبادةَ لَهُ أنواعًا**)؛ طبعًا العبادة ما هي تعريفها؟ وقد ذكر الشيخ كما ذكرنا أن العبادة الأصل فيها الخضوع والتذلل، قلنا لا بد وأن

يكون مع المحبة، والعبادة العلماء يقولون في تعريفها: إنَّ العبادة كُلُّ ما يحبُّ ربُّنا أن نتقرب به إليه فهو عبادة، كُلُّ ما أمرنا أن نجعله له، وأنْ نتقرب به إليه، قال -جَلَّ وعلا-: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[الكوثر: ٢]، ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾[مريم: ٤١]، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[النور: ٥٦]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢]، ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾[مريم: ٢٦]، وما شابه ذلك من هذه الآيات والأدلة الدالة على أن هذه الأشياء يحبُّ ربُّنا أن نتقرب بها إليه، وهو إما أنَّه يأمر بها، أو أنَّه يمدح فاعلها، أو أنَّه يذكر ذلك عن أوليائه وأنبيائه أنهم يقصدونه بها، أو أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يذكر ثوابها عنده يوم القيامة، كُلُّ هذه من الأمور التي تدلِّلُ على أنَّ هذه الأمور يحبُّ الله -عزَّ وجلَّ- أن نتقرب بها إليه، وأن نتوجه بها إليه فهو عبادة.

وكان بعض العلماء يقول: العبادة خلالٌ وخصال من التعظيم خصها الله -عزَّ وجلَّ- بذاته العليَّا.

ولذلك العبادة ليست مطلق التذلل، ومطلق الخضوع، لا؛ بل هو خضوعٌ مخصوص، ولذلك لو جاء الإنسان يعبد الله -عزَّ وجلَّ- ويذلَّ له بأمورٍ لم يشرعها الله، هل يكون بذلك عابدًا؟ لا؛ لو جاء الإنسان يتذلل وأخذ يمرّغ وجهه بالتراب، ويفرك ويضرب رأسه وجسمه، ويحرق نفسه يقول أنا أتذلل لله بحرق جسدي، وبضرب رأسي، وبإيذاء نفسي تذلُّلًا لله، هل هذه عبادة؟!! لا، لماذا؟ لأنه لم يأمر الله -عزَّ وجلَّ- بها، قد يقول قائل: لا؛ أنا متذلِّل، نقول: نعم، هذه العبادة التذلُّل والخضوع على سبيل العموم، أما العبادة المرضية عند الله -عزَّ وجلَّ- فهي العبادة التي أمر بها، وشرعها، وكُلُّ ما سوى ذلك فهي عبادة مبتدعَة، مردودة، غير مقبولة.

ولذلك يقول بعض العلماء: إنَّ العبادة هي خلال وخصال من التعظيم؛ خصها الله بذاته العليَّا. أشياء معينة خصها -عزَّ وجلَّ- بذاته؛ بحيث لم يجعلها لأحدٍ سواه، والمقصود بذلك تعظيم الله تبارك وتعالى.

ثم يقول الشيخ بأن العبادة أنواع: **(منها اعتقاديَّة)**، أيْ أنه هناك عبادات اعتقادية، يعني يعتقد الإنسان أن الله -عزَّ وجلَّ- هو الربُّ الواحد الأحد؛ الذي له الخلق والأمر، وأن يعتقد بأفعاله، وبصفاته، فكُلُّ ما أخبر الله -عزَّ وجلَّ- به عن نفسه فإن الله يأمرنا أن نعتقده، وأن نؤمن به، فقد أخبرنا الله -عزَّ وجلَّ- عن صفاته، وأخبرنا الله -عزَّ وجلَّ- عن أفعاله، أخبرنا أنَّه ينزل، وأنَّه يجيء، وأنَّه يقبض، وأنَّه يسبط، وأنَّه يفعل، وأنَّه ينتقم، وأنَّه يشاء، وأنَّه يميت، وأنَّه يحيي، وأنَّه يرزق، وأنَّه يدبر الملكوت، كُلُّ هذا أخبرنا -جَلَّ وعَلا- من أفعاله.

إذن الله -عزَّ وجلَّ- عندما أخبرنا أَلَا يأمرنا أن نعترف بهذه له؟ نعم؛ فنحن ننسبها لله -عزَّ وجلَّ- ونعتقدها أفعالًا لله، وهل مجرد الاعتقاد بها أفعال كافٍ؟ بل نعتقدها أفعالًا لا شريك له فيها؛ لأن العبادة كُلُّها كما ذكرنا لا بد فيها من التوحيد، فنعم أخبرنا الله -عزَّ وجلَّ- أنَّه يرزق، لا يكفي أنْ تعتقد بأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يرزق؛ لا، بل تعتقد أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يرزق لا شريك له في الرزق، أخبرنا الله أنَّه يُدبر الملكوت، وأنَّه يتصرف في العالم، وأنَّه يقبض ويبسط، ويميت ويحيي، إذن نحن نؤمن بأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- هو المتفردُ بالإماتة والإحياء، والإعطاء، والضُّر، لا شريك له في ذلك، فلو اعتقد الإنسان أنَّ الله يرزق، وأنَّه يفعل، وأنَّه ينتقم، وأنَّه... وأنَّه... لكن اعتقد شيئًا من ذلك في بعض مخلوقاته كان بذلك مشركًا، لم يكن متعبدًا لله -عزَّ وجلَّ- العبادة التي أمر الله -عزَّ وجلَّ- بها؛ فهذه عباداتٌ اعتقاديَّة، وهي أنْ تعتقد لله بذلك؛ لأن هذا الاعتقاد يترتب عليه تعظيم الله، فأنت عندما تعترف وتُذعِنُ قلبك بأنَّ الله هو الخالق وحده، هو الرازق وحده، وهو المدبِّر وحده، وهو الذي بيده الملكوت وحده -تبارك وتعالى- لا شريك له، وبأنَّه المستحق بالعبادة وحده لا شريك له، فإذا خصصته بهذه الأشياء إنما هذا التخصيص يقتضي تعظيم الله، وإجلال الله -عزَّ وجلَّ-؛ ولذلك يَذِلُّ القلب متى ما كان أعرف لله، أو أعرف بالله.

فكُلَّما كان العبد أكثر معرفةً بالله، وبأسمائه، وبصفاته، وأفعاله، كان أعظم توحيدًا.

ولذلك باب معرفة الله -عزَّ وجلَّ- باب الرُّبُوبيَّة، أو الربوبيَّة وأفعال الله -عزَّ وجلَّ- وصفاته هي باب الأُلُوهيَّة؛ لأن العبد إذا اعترف بذلك لله، وخصَّها بالله ذَلَّ قلبه له، ولا بد، ذَلَّ قلبه، وعَظُمَ حبُّه لله، ولا شك، والإنسان أساسًا إذا أُخبِرَ بصفات شخصٍ لم يَرَهُ، وأُخبِرَ عن جميل أفعاله، وجميل صفاته، أحبَّه القلب ضرورةً، لكنَّ محبة الله مع خضوع وإذعان، وتَعَبُّد وتَأَلُّه.

فهذه عباداتٌ اعتقاديَّة، عباداتٌ قلبيَّة، وهذا مراد الشيخ -رحمه الله- **(أنَّها منها اعتقادية)**، ويدخل في ذلك أيضًا؛ هذه العبادات القلبيَّة يتبعها أعمالٌ قلبيَّة، فالإنسان إذا عرف أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- هو الخالق وحده، وهو المدبِّر وحده، خضع القلب له، ورجاه، كيف يرجو الإنسان ربَّه، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه؟ إذا علِمَ أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- شديد العقاب، وأنَّه ينتقم، وأنَّ بطشه أليم، وأنَّ عذابه عظيم، وأنَّه يأخذ أخذ عزيزٍ مقتدر، وأنَّه... وأنَّه... من صفات البطش والقوة، ماذا يحصل للقلب؟ يحصل للقلب انكسار، وخوف، ووجل، فتأتي العبادات؛ تأتي حركة، ما يسمَّى عند العلماء بحركة القلب، فيتحرك القلب إجلالًا لله، وخوفًا، وخشيةً.

كذلك إذا عَلِمَ رحمة الله -عزَّ وجلَّ- وعَلِمَ أنَّ الجنَّةَ بيده، وأنَّه هو الذي يغفر، وهو الذي يرحم، وهو الذي يكرم؛ رجَاهُ القلب، وإذا عَلِمَ أنَّ الأمور كُلَّها بيد الله -تبارك وتعالى- وأنَّ جميع ذرَّات الكون لا تتحرك إلا بأمر الله، وأنَّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، توكل عليه، أذعن القلب حتى توكل عليه، وعلم أنَّه لا قيام لشيءٍ إلا بالله -تبارك وتعالى- وعَلِمَ أنَّ كُلَّ الأسباب هذه إنما تقوم بأمر الله، فيتبع ذلك التوكل، والخوف، والإنابة، إذا عَلِمَ أنَّ -عزَّ وجلَّ- هذا العظيم أمرك بالصلاة والصيام، وأنَّ هذا هو سبيل الرضوان، ذلَّ العبد والتزم، وانقاد قلبًا، فشعر بالذُلِّ والخضوع، وإذا علم أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- الجبَّار لم يأمر إلا بأن يُفرد وحده، وأنَّه -جَلَّ وعلا- يُعذِّب من أشرك به، أخلص لله، فهكذا حركة القلب تأتي بعد المعرفة.

ولذلك أوَّل ما يقع في القلب قبل مجيء الأشياء اللَّفظية والعملية هو العلم؛ الذي يكون في القلب، ومن هنا قال أهل العلم بأنَّ أصل الإيمان في القلب، وبعض الناس ظنَّ أنَّ كلام العلماء

بأنَّ أصل الإيمان في القلب بأنَّ الإيمان لا يكون إلا في القلب فقط؛ وعلى هذا فلا ينتفي الإيمان إلا بانتفاء ما في القلب، وإذا حصل ما في القلب حصل الإيمان، هذا من جهلهم بتفسير عبارات السلف، بل مراد العلماء بأن أصل ما في القلب أنَّ أول ما يقع الإيمان في القلب أساس القول متى يقع؟ متى يقول الإنسان المسلم أشهد أنْ لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ بعد ما عرف بقلبه قالها، متى صلى؟ بعدما عرف بقلبه الله -عزَّ وجلَّ- وعرف بأنَّ الله افترض الصلاة، وأنَّه ملزم بذلك صلى.

ولذلك حركة اللسان، وحركة البدن تتبع أولًا الاعتراف القلبي، وحركة القلب من الإخلاص والخضوع، والاستسلام والتوكل، والإنابة، والرجاء، فرعٌ عن العلم، يعلم أولًا يقع العلم في القلب ثم يتحرك القلب بالالتزام، والخوف، والخشية، ثم يتبعه بعد ذلك الأعمال، وحركة البدن، حركة اللسان؛ ولذلك أول ما يقع في القلب، وأنت إذا أردت أن تدعو إنسان إلى الإسلام، تدعوه إلى ماذا؟ تعرفه بالله أولًا، فإذا عرف ربَّه عبده، إذا عرف ربَّه تحركت جوارحه، وتحرك قلبه لما يُحبُّ الربُّ -تبارك وتعالى-؛ فهذا معنى أنَّ أصل الإيمان في القلب، وعنه ينتج كُلُّ فعل؛ فعل قلبي، فعل لساني، فعل بدني، نعم.

- **ولَفظِيَّةُ: وهي النطق بكلمة التوحيد، فمن اعتقد ما ذُكِرَ ولم ينطق بها، لم يُحْقَنْ دمه، ولا ماله، وكان كإبليس، فإنه يعتقد التوحيد، بل ويقر به كما أسلفنا عنه، إلا أنَّه لم يمتثل أمر الله بالسجود فكفر. ومن نطق ولم يعتقد، حُقِنَ ماله، ودمه، وحِسَابُهُ على الله، وحُكمُهُ حُكمُ المنافقين.**

من العبادات؛ العبادات اللَّفظيَّة، أيْ: لا بد من التلفظ، لا يكفي الاعتراف بالقلب، ولا حركة القلب، أيضًا لا بد من التلفظ، لا بد من الإذعان، والالتزام، فالتوحيد ليس أمرًا إقراريًّا فقط، بل هو أمرٌ إقراري وعملي، وفعلي، ونطقي، ولذلك كيف نعرف الاسم المسلم من الكافر؟ بالنطق، «**أمرت أنْ أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾[فصلت: ٣٠]، من قال: لا إله إلا الله؛ إنَّ الذين قالوا؛ لا بد من قول، لذلك

أجمع المسلمون على أنْ: من لم ينطق بكلمة التوحيد مع قدرته على ذلك فإنه كافر، ولو أقرَّ بقلبه، إبليس كان يقرُّ بأنَّ الله هو الخالق الرازق، كيف؟ وهو في ملكوت الله –جَلَّ وعلا– في الملأ الأعلى، لكنه استكبر الانقياد إلى أمر الله –تبارك وتعالى–. وقول الشيخ (**إلا أنَّه لم يمتثل أمر الله فكفر**)؛ طبعًا إبليس كفر؛ لأنه استكبر عن أمر الله، ليس فقط ترك الامتثال، إبليس لم يكفر لأجل ترك الامتثال؛ وإلا لكان كُلُّ عاصٍ كافرًا، لكنَّ إبليس استكبر عن ذلك، قال: ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ**﴾[البقرة: ٣٤]، فالاستكبار عن الانقياد عن أمر الله –تبارك وتعالى– هذا هو الكفر، وإلا إبليس يعترف بربوبيَّة الله –جَلَّ وعلا–: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[البقرة: ٣٤]، فبعزتك؛ هو يعترف بربوبيَّته، ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾[الحجر: ٣٩]، ربِّ؛ ﴿**قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[الأعراف: ١٤]، يخاطب الله وهو يعرف الله –عزَّ وجلَّ–.

لكن لا بد فيه من النطق، والنطق ما هو أصلٌ في الإيمان، ومنه كمالٌ واجب، أيْ: منه ما هو واجبٌ، لكن لا يزول الإيمان بزواله، أما أصل الإيمان فالنطق بالشهادتين؛ النطق بالشهادتين هذا أصل، فمن لم ينطق بالشهادتين فهو كافر ولو أقرَّ به.

- **وبَدَنِيَّةٌ: كالقيام، والركوع، والسجود في الصلاة، ومنها الصَّومُ، وأفعال الحجِّ، والطَّوَاف.**
- **وماليَّةٌ: كإخراج جزء من المال، امتثالًا لما أمر الله تعالى به.**

كُلُّ هذه إذن اعتقاديَّة، ولفظيَّة، وبدنيَّة، وماليَّة، أي: كُلُّ ما أمرنا نتقرب به إلى الله قولًا كان أو فعلًا، انفاقًا أو عملًا جسديًّا، أو عملًا تجاه الغير، كُلُّ ذلك من العبادات، ولذلك يقول شيخ الإسلام –رحمه الله– العبادة: "اسم جامعٌ لِكُلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه؛ من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة"، اسم يجمع كُلَّ ما يحبُّه الله يرضاه، إما قولًا، أو فعلًا، أو عملًا قلبيًّا.

وأنواع الواجبات والمندوبات في الأموال، والأبدان، والأفعال، والأقوال كثيرة، لكن هذه أُمَّهَاتها.

وإذا تَقَرَّرَتْ هذه الأصول، فاعلم أنَّ الله تعالى بعث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من أَوَّلِهم إلى آخِرهم يدعون العباد إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، لا إلى إثبات أنَّه خلقهم ونحوه، إذ هم مُقِرُّون بذلك، كما قررناه وكررناه.

ولذا قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[الأعراف: ٧٠]، أيْ: لنفرده بالعبادة ونخصه ويختص بها من دون آلهتنا الأوثان، فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله.

ولم ينكروا الله تعالى، ولا قالوا أنَّهُ لا يُعْبَد، بل أقروا بأنَّه يُعبد وأنكروا كونه يفرد بالعبادة، فعبدوا مع الله غيره وأشركوا معه سواه واتخذوا له أندادا، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٢]، أيْ: وأنتم تعلمون أنَّهُ لا نِدَّ له.

أيْ: لا نِدَّ له في ماذا؟ لا نِدَّ له في الربوبيّة، أي: فلا تجعلوا لله أندادًا في العبادة، أي: نظراء تصرفون له بعض أنواع العبادة وأنتم تعلمون أنَّه لا شريك له في الخلق، ولا في الملك، ولا في التدبير، فهم مُقِرُّون بأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- خالقهم ورازقهم لكن يجعلون معه أندادًا.

وكانوا يقولون في تَلْبِيَتِهم للحجِّ: "لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك".

وكان يسمعهم النَّبيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عند قولهم "لا شريك لك" ويقول: «قَدِ، قَدِ»، أيْ: أفردوه جَلَّ جَلَالُهُ؛ لو تركوا قولهم "إلا شريكًا هو لك"!!

فنفس شِركِهم بالله تعالى إقرارٌ به تعالى.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[الأنعام: ٢٢]، ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾[القصص: ٦٤]، ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾[الأعراف: ١٩٥]، فنفس اتخاذ الشريك، إقرارٌ بالله تعالى.

إقرارٌ! كيف إقرارٌ؟ فنفس اتخاذ الشركاء إقرار، أي كون الإنسان يتخذ الشريك مع الله هو يقر بأن الله -عزَّ وجلَّ- يُعبد -تبارك وتعالى-.

فنفس اتخاذ الشريك، إقرارٌ بالله تعالى، ولم يعبدوا الأصنام بالخضوع لها، والتقرب إليها بالنذور والنَّحرِ لهم؛ إلا لاعتقادهم أنَّها تُقَرِّبُهم إلى الله زُلْفَى، وتشفع لهم لديه.

إذن هو الشيخ –رحمه الله– يُبيِّن بأن الله –عزَّ وجلَّ– إنما أرسل الرسل لعبدوا الله وحده، أيْ: أُرْسِلوا بتوحيد العبادة، لم يُرسلوا بتوحيد الربوبيَّة، أو لم يرسلوا بتوحيد الربوبيَّة ولا بالأسماء والصفات؛ لأنهم مشركين ما كانوا منكرين لذلك أساسًا، وإنما الذي بعث به الأنبياء هو الدعوة إلى توحيد الله في العبادة، ولذلك قال: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾[الأعراف: ٧٠]، هذا الذي أنكروه على النبي –عليه الصلاة والسلام–، ما أنكروا أن يكون الله هو الخالق وحده، الرازق وحده، بل كان النبي –عليه الصلاة والسلام– يُقرِّرهم بذلك حتى يبيِّن بأنَّه مستحقٌّ للعبادة وحده، إذا أقرَّرت بأنَّ الله هو الخالق، الرازق وحده، المدبِّر الذي لا شريك له، فيقتضي بأنْ يكون الله –عزَّ وجلَّ– هو المعبود وحده أيضًا.

فـ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾[الأعراف: ٧٠]، فدلَّ على أنَّ مجيئه إليهم كان لماذا؟ ليفردوه بالعبادة، لا ليعبدوه، فهم كانوا يعبدونه، وما كانوا ينكرون أنْ يكون الله –عزَّ وجلَّ– مستحق للعبادة، أبدًا ما ينكره أحد، هم لا ينكرون بأن الله يستحق العبادة، نعم الله يستحق العبادة، كيف ينكرون ذلك وهم يعبدون الله تبارك وتعالى؟! فهم يقرِّون بأنَّ –عزَّ وجلَّ– يستحق العبادة، لكنَّهم لم يعتقدوا استحقاقه وحده، بل جعلوا معه شركاء في العبادة، وجاء النبي –عليه الصلاة والسلام– ليبيِّن بأنَّه لا شريك له في العبادة، وهذا الذي يأباه المشركون، وامتنعوا منه، ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص: ٥]، ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[الصافات: ٣٦]، إذن دعاهم إلى ماذا؟ إلى ترك الآلهة، أيْ: ترك عبادتها، وأمرهم ليجعلوا الإله المعبود واحدًا، أنجعل الالهة التي نعبدها –وهي أصناف– إلهًا واحدًا! إنَّ هذا لشيء عجاب، ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[الأعراف: ٧٠]، إذن جاءهم بترك

الأنداد، وبإفراد الله -عزَّ وجلَّ- بالعبادة، هذه هي دعوة الرسل؛ الدعوة إلى إفراد الله -عزَّ وجلَّ- بالعبادة.

ولذلك لا بد فيها بالكفر بالطاغوت، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- جاء بالكفر بالطاغوت؛ لأنهم ما كانوا كافرين بالطاغوت، فلا إله إلا الله، استحقاقه للعبادة له ما كان ينكره المشركون، يعتقدون أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يستحق أنْ يُعبد، كيف لا يُعبد؟! وهم مقرِّون بأنَّه الخالق الرازق، المدبِّر وحده لا شريك له، بل الله -عزَّ وجلَّ- مستحق العبادة لكنهم ما كانوا يكفرون بما سواه، هذه الإشكال.

ولذلك الإشكال أساسًا ودعوة الرسل هي جاءت لتذكير الناس وأمرهم بالكفر بالطاغوت، وبالبراءة من الشرك، وهذا الذي أنكره المشركون، وعَدُّه سبًّا، فقالوا إذا دعانا إلى أنْ نترك الأنداد، وأنْ نعتقد بأنَّ الشرك باطل، وأنَّ من عبد مع الله غيره مشركٌ هذا سبٌّ لنا، أولًا وصفٌ لنا بالشرك، وسبُّ دين آبائنا؛ لأنهم لم يكونوا على دين، وأنَّهم كانوا مشركين فقالوا جاء مُحَّد يسبُّنا، ويسفِّهُ أحلامنا، ويسبُّ آبائنا وأجدادنا، ماذا قال؟!! هل سبَّهم قال لعنكم الله، قبحكم الله؟!! ما قال؛ لكن قال هؤلاء مشركون، وهذا هو ظاهر.

ولذلك قدَّم الله -عزَّ وجلَّ- في أكثر الآيات، الكفر بالطاغوت، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾[البقرة: ٢٥٦]، لا إله إلا الله؛ ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف: ٢٧، ٢٦]، فهذا هو الإشكال، لم يكن عندهم إشكال في أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يستحق العبادة.

ثم إنَّ هذه المعبودات التي عبدوها، والأنداد التي اتخذوها لم يعتقدوها مثيلةً لله، بل اعتقدوها تابعة له، ولذلك حتى من عبدوهم من الأصنام، والأنداد، والأولياء، ما اعتقدوا أنَّه يماثل الله، أساسًا ليس عندهم أحد يماثل الله، ولا يساويه، لكنهم جعلوا بعض حقِّ الله لهؤلاء على أنهم يوصِلونهم إلى الله، ولذا قالوا: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك؛ يعني حتى هذا الشريك الذي نعبده أنت اللي تملكه، ما يملك شيئًا.

إذن لم يجعلوا حتى هذه الأنداد مساوية لله، ومع ذلك كانوا مشركين؛ لأن حقَّ الله ألا يُعبد أحدٌ سواه، سواءٌ اعتقدته مثيلًا لله، مساويًّا له في درجة واحدة، أو اعتقدت البون الشاسع بين الله وبينه؛ لو اعتقد الإنسان بأنَّ هذا لا يملك شيئًا، وبأنَّ الحسين لا يملك شيئًا، والأمر كُلُّه بيد الله، وأنَّ الحسين أساسًا، وعلي، كُلُّهم تحت مشيئة الله، ولا يملكون ذرةً من الكون، لكنْ قال: يا حسين، يا عباس، أشرك بالله تبارك وتعالى؛ لأن العبادة كُلُّ هذا محض حقِ الله.

ولذلك سمَّاه؛ (**فنفس شركهم إقرارٌ بالله**)؛ لأنهم أساسًا لما أشركوا هم مقرِّون بأنَّ الله يُعبد، وجعلوا هؤلاء شركاء، قالوا لا شريكًا هو لك، فلما أشركوا أيْ: معنى كلامه أنَّ هؤلاء لم يجعلوا الأنداد يتعبدوها منفردة بهذا الأمر، ما قالوا لا، نعبد اللات فقط، هو الإله الواحد الذي لا إله غيره، ما قالوا هذا أساسًا، أو عُزى هو الإله الواحد الذي لا إله غيره، أو ود أو سواع أو الملك أو النبي أبدًا، لكن قالوا هؤلاء شركاء لله، فجاء الأنبياء بنفي هذه نفس هذا الشرك.

فكونهم أقرُّوا بأنَّ هؤلاء شركاء، هذا إقرارٌ بالله -تبارك وتعالى- أيْ: إقرار بأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- أيش؟ يستحق أنْ يُعبد، لكن هل يستحق أنْ يُعبد وحده؟ وأنَّه يجب ترك الأنداد، هذا الذي وقع النزاع فيه.

فأرسل الله الرسل تأمرهم بترك عبادة كُلِّ ما سواه، وتُبيِّنُ أنَّ هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطلٌ، وأنَّ التقرب إليهم باطلٌ، وأنَّ ذلك لا يكون إلا لله وحده، وهذا هو توحيد العبادة.

هذا هو توحيد العبادة، أرسلهم الله -عزَّ وجلَّ- ليأمر العباد بأنْ يُعبد الله -عزَّ وجلَّ- وحده، وأنْ يعتقد بطلان عبادة كُلُّ ما سواه، وأنْ تترك الأنداد، بحيث لا يصرف شيئًا من العبادة إلا لله، هذا هو الذي جاء به الأنبياء، إفراد الله بالعبادة؛ وهو توحيد العبادة، نعم.

وهـذا هـو توحيـد العبـادة، وقـد كـانوا مُقِـرِّينَ –كمـا عرفـت في الأصـل الرابـع– بتوحيد الربوبيَّة، وأنَّهُ الخالق وحده، الرازق وحده.

ومِن هـذا تعـرف أنَّ التَّوحيـد الـذي دعـتهم إليـه الرسـل مِـن أَوَّلِهـم وهـو نـوح –عليـه السـلام– إلى آخِـرهم وهـو مُحَمَّـدُ بـن عبـد الله –صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ– هـو توحيـد العبـادة، ولـذا تقـول لهـم الرسـل: ﴿أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[هود: ٢]، ﴿اعْبُـدُوا اللَّهَ مَـا لَكُـمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف: ٥٩].

وقـد كـان المشـركون مـنهم مـن يعبـد الملائكـة، ويناديهم عنـد الشـدائد، ومنهم مـن يعبـد أحجـارًا، ويهتـف بهـا، ويناديهـا عنـد الشـدائد، وهـي في الأصـل صـور رجـالٍ صـالحين، كـانوا يُحِبـونهم، ويعتقـدون فـيهم، فلمَّـا هلكـوا صـوَّروا صـورهم تسـلِّيًا بهـا، فلمَّا طـال علـيهم الأمـد، عبـدوهم، ثم زاد الأمـد طـولًا، فعبـدوا الأحجـار، ومنهم مـن عبـد المسـيح، ومـنهم مـن يعبـد الكواكـب، ويهتـف بهـا عنـد الشـدائد، فبعـث الله محمَّـدًا –صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ– يـدعوهم إلى الله وحـده، بأن يفـردوه بالعبـادة، كمـا أفـردوه بالرُّبُوبِيَّـةِ، أيْ: بربوبيـة السـماوات والأرض، وأنْ يفـردوه بكلمـة "لا إلــه إلا الله وحده" معتقدين لمعناها، عاملين بمقتضاها، وأنْ لا يدعوا مع الله أحدًا.

وقـال تعـالى: ﴿لَـهُ دَعْـوَةُ الْحَـقِّ وَالَّـذِينَ يَـدْعُونَ مِـنْ دُونِـهِ لَا يَسْـتَجِيبُونَ لَهُـمْ بِشَيْءٍ﴾[الرعد: ١٤].

المشركون –كما ذكر الشيخ– كانوا مقرِّين بأنَّ الله –عزَّ وجلَّ– هو الإله الذي يستحق أن يعبد لكن كانوا ينكرون أنْ يكون الله –عزَّ وجلَّ– لا شريك له في العبادة، بل عبدوا غير الله على أنَّهم شفعاء، لا على أنَّهم يساوون الله أو أنَّهم يدانونه في المنزلة، لكن أنَّهم شفعاء، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[الزمر: ٣]، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾[الزمر: ٤٣]، فنفى الله –عزَّ وجلَّ–؛ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[يونس: ١٨]، إذن عبدوهم على أنَّهم شفعاء، وأنَّهم وسطاء، لم يعبدوهم على أنَّهم يخلقون، ويرزقون، ولا على أنَّهم متفردون في العبادة،

مستحقون لها وحدهم، ولا على أنَّهم يساوون الله -عزَّ وجلَّ- ويوازونه، لا؛ بل عبدوهم على أنَّهم شركاء وهم تحت قدرة يتصرف بهم -جَلَّ وعلا- كيف يشاء.

وهذا هو الشرك الذي جاء الأنبياء بنهيهم عنه، وهم كانوا مختلفين في عبادتهم، فمنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد الأولياء، ومنهم من يعبد الملائكة، كما ذكر الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[آل عمران: ٨٠]، أيْ: آلهةً؛ ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٨٠]، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾[سبأ: ٤٠، ٤١]، تشكلت لهم الجنُّ في صورة ملائكة فظنُّوا بأنَّهم ملائكة فعبدوهم.

والأصنام التي عبدوها كانت ترمز للصالحين، فهذه الأصنام التي عُبِدَت في الجزيرة هي الأصنام التي عبدها قومُ نوح، فإنها أُخرجت ثم عُبِدت، ثم نقلها عمرو بن لحي إلى العرب، وهي رمز، وإلّا ما يعقل أن الإنسان يصنع حجرًا بنفسه ثم يعبده إلا أنَّه يرمز، والأصنام التي حطَّمها إبراهيم هي رموز للآلهة التي يعتقدونها؛ لأن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الكواكب، وجعل لكُلِّ كوكب من الكواكب السبعة صنمًا، فناظرهم إبراهيم -عليه السلام- في هذه الكواكب ثم حطَّم رموزها في الأرض.

ولذلك هذه الأصنام هي رموز أساسًا؛ رموز، واليوم الناس تضع شعار رمز للصالح، فتضع شعار للحسين، وتضع صورة، تضع كذا، هل تريد عبادة الصورة، فتجده يتقرب، وتجده يتمسح به، ما يريد الصورة، يريد أيش؟ مَنْ ترمز له الصورة، وهذا أمر معروف، أمر فطري معروف، ويجعل الإنسان شيئًا ويرمز لشيء، ويبدأ يتوجه له كأنما يتوجه للمدعو المعبود، فما عبدوا صنمًا، هو يصنع الصنم، ثم إذا جاع؛ يصنعه من تمر ثم إذا جاع أكله، هل أكل إلهه؟ لا، هو أكل الرمز الذي رمز له، وإلا إلهه لا يزال في قلبه معظَّمًا.

فجاء الأنبياء ليأمروهم أن يفردوا الله بالعبادة، وأنْ يعتقدوا بأنَّ العبادة محض حقِّ الله، وأنْ يُقِرّوا بلا إله إلا الله، وهي التي أباها المشركون، ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[الصافات:

٣٦]، علموا بأنَّ لا إله إلا الله تقتضي ترك الآلة والأنداد؛ تركها اعتقاد أيش؟ تركها فعلًا، واعتقاد بطلان عبادتها، والكفر بها، وبأهلها، أيْ: لا بد من الاعتقاد؛ لأن عابد الأنداد كافر، ولذلك سمُّوا دعوة النبي –عليه الصلاة والسلام– سبًّا لآلهتهم؛ لأن النبي –عليه الصلاة والسلام– قال هؤلاء كفار مشركون، قالوا كيف تقول عنَّا وعن أجدادنا كفار مشركون؟

ولأجل ذلك غضب هؤلاء على الإمام مُحَّد بن عبد الوهاب –رحمه الله– في دعوته، ما الذي أغضبهم؟ قالوا يسبُّ النبي –عليه الصلاة والسلام–، ويسبُّنا؟! قالوا: قال إن الرسول لا يُدعى، هذا سبٌّ له، ويسبُّنا؛ لأنه حكم بأننا مشركون؛ لأننا نعبد غير الله –عزَّ وجلَّ–، فالمعارضات لدعوة الأنبياء، ولأتباعهم واحدة في كُلِّ زمان ومكان.

فجاء الأنبياء ليأمروهم بأنْ يقولوا: لا إله إلا الله، وأنْ يؤدُّوا معناها، أنْ يقولوها باللسان، ويعملوا بمقتضاها؛ لأنها تنفي الأُلُوهية عمَّا سوى الله، وتطرد البراءة من الشرك ومن أهل الشرك.

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: ١٢٢]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣].

أيْ: من شرط الصدق في الإيمان بالله أن لا يتوكلوا إلا عليه، وأن يفردوه بالتوكل كما يجب أن يفردوه بالدعاء والاستغفار.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾[المائدة: ٢٣]، قدَّمَ الجار والمجرور يدلُّ على حصر التَّوكل؛ على الله فتوكَّلوا لا توكل إلا على الله، ولا توكل على أحد سواه، ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾[الرعد: ١٤]، أيْ: الدعاء الذي هو حق؛ هو دعاء الله، فهو مستحق العبادة، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾[الرعد: ١٤]، الذين؛ من الأسماء التي تفيد العموم، تعمُّ كُلَّ مدعو نبيًّا كان، ملكًا، رسولًا، جِنًّا، إنسيًّا، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾، وشيء نكرة في سياق النفي تفيد؛ لا يستفيدون بأيْ شيء، يعمُّ كُلَّ شيء، ولو أدنى شيء.

وأمر الله عباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة: ٥]، **ولا يصْدُقُ قائلُ هذا؛ إلا إذا أفرد العبادة لله تعالى، وإلا كان كاذبًا منهيًّا عن أنْ يقول هذه الكلمة، إذ**

معناها: نخصُّك بالعبادة، ونفردك بها، وهو معنى قوله: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[العنكبوت: ٥٦]، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[البقرة: ٤١].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة: ٥]، إياك مفعولٌ به، ونعبد أيش؟ هو الفعل، والعرب تقول في اللغة أنَّ تقديم من حقِّه التأخير، تقديم الجار والمجرور، تقديم الخبر على المبتدأ يدل على الحصر، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أيْ: نعبدك ولا نعبد أحدًا سواك، ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[العنكبوت: ٥٦]، أيْ: اعبدوني ولا تعبدوا أحدًا سوايا، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[البقرة: ٤١]، أيْ: اتقون ولا تتقوا أحدًا سوايا، وهذا كُلُّه يدل على أنَّ العبادة التي أمر الله -عزَّ وجلَّ- بها هي التوحيد فيها، بأنْ لا يُعبد أحدٌ سواه، وأن يُعتقد ذلك، وأن يُعمل به.

ولما عرف من "علم البيان" أنَّ تقديم ما حقُّهُ التأخير يفيد الحصر، أيْ: لا تعبدوا إلا الله، ولا تعبدوا غيره، ولا تتَّقُوا إلا الله، ولا تتَّقُوا غيره، كما في "الكَشَّافِ".

الكَّشاف للزمخشري؛ والزمخشري كتابه الكشاف مليء بالاعتزال، لكنه مما امتاز به القضايا اللغوية، هو اعتنى بالنواحي اللغوية كثيرًا، وإن كان الرجل معتزليًّا معروفًا بالاعتزال.

فإفراد الله تعالى بتوحيد العبادة، لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كُلُّهُ له والنِّداءُ في الشدائد والرخاء، لا يكون إلا لله وحده لا شريك له، والاستغاثة، والاستعانة بالله وحده، واللَّجَأُ إلى الله، والنَّذْرُ والنَّحرُ له تعالى، وجميع أنواع العبادات من الخضوع، والقيام تذَلُّلًا لله تعالى، والركوع، والسجود، والطواف، والتَّجَرُّدِ عن الثياب، والحلق، والتقصير، كُلُّهُ لا يكون إلا لله -عَزَّ وجَلَّ-.

الحلق والتقصير التعبدي، أنْ يفعل ذلك تعبدًا، وهذا لم يزل المشركون يتعبدون بحلق رءوسهم، وتقصير شعورهم عند أندادهم، وقبور أنبيائهم، وعلى آلهتهم، فالتقصير بمعنى التعبد؛ لأن نحن نقصر في الحجِّ والعمرة تعبدًا وتذلُّلًا له، أما الإنسان له أن يُقصِّر لغير سبب؛ مشتهي أن يحلق رأسه، إن لم يكن على سمى الخوارج فالأمر فيه واسع.

ومن فعل شيئًا من ذلك لمخلوقٍ حَيٍّ، أو مَيْتٍ، أو جمادٍ، أو غير ذلك؛ فقد أشرك في العبادة.

وصار من تُفْعَلُ له هذه الأمور إلهًا لعابديه، سواءً كان ملكًا، أو نبيًّا، أو وليًّا، أو شجرًا، أو قبرًا، أو جِنِّيًّا، أو حيًّا، أو مَيْتًا.

كُلُّ من صُرِفَ له شيء من هذه الأمور فهو إله عند عابده؛ لأن الإله في اللغة هو المعبود، في اللغة الإله هو المعبود؛ حتى لو كان معبودًا بالباطل، ولذلك هل الآلهة واحدة في الأرض إلهًا واحدًا ولا آلهةً كثيرة؟ كثيرة لا حصر لها، بمعنى أنَّ المعبودات لا حصر لها، كلها آلهة باطلة، والإله الحقُّ كم؟ واحد هو الله، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾[الحج: ٦٢]، وإلا الآلهة كثيرة، ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾[يس: ٧٤]، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[الأنبياء: ٢٤]، اتخذوا آلهةً كثيرة لا حصر لها، في الهند يقال إن فيها أكثر من ألفين ديانة، ما بقي شيء حتى عُبِد، حتى الفئران، حتى الحشرات، حتى الحيوانات والبهائم؛ كُلُّها عبدت.

إذن الآلهة كثيرة جدًّا، وكُلُّ معبودٍ فهو إله، إذا كان كما حسب ذلك مجلس الوطن للآثار في مصر ستة آلاف ضريح ومقام في مصر وحدها، ما معنى هذا أنَّ في مصر وحدها ستة آلاف إله يُعبد، كُلُّها باطلة، والإله الحقُّ هو مَنْ؟ هو الله؛ لأن اللغة؛ لغة العرب أنَّ كُلَّ معبودٍ فهو إله، أيْ: عند عابده، إلهٌ عند عابده، وإلا فهو إلهٌ باطل. ولذلك جاء الأنبياء بحصر الأُلوهية الحقة في الله، ولذلك قال العلماء: لا إله حق، وليس لا إله موجود كما يقول بعض الناس؛ لأن لا هذه النافية للجنس تعمل عمل إنَّ، لها مبتدأ وخبر، إلا ولها اسم وخبر، لا إله، جوابها أين؟ إله اسم، أين خبرها؟ محذوف، إذا كان معلومًا تقول: لا أحد في الدار، طيب؛ لا أحد اسم لا، طيب، أين خبرها؟ إذا كان معروفًا تُرِك، ومعنى لا أحد موجودٌ في الدار، لكن لا يُذكر موجود

لظهور معناه، كذلك لا إله، قال بعض العلماء تقدير لا إله موجود، كيف لا إله موجود، والآلهة لا حصر لها؟! الآلهة كثيرة جدًّا كيف لا إله موجود؟! باطل؛ بل لا إله حق؛ لأن الآلهة الموجودة كثيرة، لكن الآلهة التي جاء بنفيها هي استحقاق هذه الآلهة للأُلُوهية، فهي آلهةٌ باطلة.

وصار بهذه العبادة أو بِأَيِّ نوعٍ منها عابدًا لذلك المخلوق، وإنْ أَقَرَّ بالله وعبده، فإنَّ إقرَارَ المشركين بالله وتقَرُّبَهُم إليه لم يخرجهم عن الشِّرك، وعن وجوب سفك دمائهم، وسَبْيِ ذراريهم، وأخذ أموالهم غنيمة، قال الله تعالى –في الحديث القدسي–: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**».

لا يقبل الله عملًا شُورِكَ فيه غيره، ولا يؤمن به مَنْ عَبَدَ معه غيره.

إذن عرفنا بأنَّ كُلَّ من صُرف له شيء من أنواع العبادة فهو إلهٌ في لغة العرب، وكل من صرف شيئًا من العبادة لشيء فهو عابدٌ لذلك الشيء، لو عَمِل عملًا واحدًا صار عابدًا، فمن صرف الدعاء لميت، أو قال يا حسين، أو فلان أو ذبح لقبر، أو نذر له، أو هتف باسمه، أو ناداه بالشدائد، فقد اتخذه إلهًا، وصار عابدًا له، وإنْ أقرَّ بأُلُوهية الله، فهو مشرك، هو يقرُّ بأُلُوهية الله لكنه يصرف بعض أنواع العبادة لغير الله تبارك وتعالى. ولا يُخرجه إقراره بأُلُوهية الله عن الشرك، فإنَّ المشركين كُلَّهم كانوا يقرِّون بأنَّ الله –عزَّ وجلَّ– إلهٌ يستحق أنْ يُعبد، ما أنكروا ذلك أساسًا، ولا اعتقدوا في معبوداتهم أنَّها توازي الله، وأنَّها تضاهيه، وأنَّها تدانيه، بل هي مملوكة له، ولذلك كانوا مشركين، فاعترافهم بأنَّ الله –عزَّ وجلَّ– يستحق أنْ يُعبد لم يكن كافيًّا في نجاته أو في حقن دمائهم وأموالهم، ولا في وصفهم بالتوحيد؛ لأنَّهم ما كانوا موحدين، والواجب أن يقول أنَّ الله –عزَّ وجلَّ– هو المستحق العبادة، وأنْ يعتقدوا بطلان عبادة كُلُّ ما سواه، وأن يتبرأوا منها قولًا وفعلًا، ومن هنا شُرع الجهاد ضد هؤلاء، وهذا من باب الكفر بالطاغوت باليد، من باب هدم كُلُّ هذه الطواغيت، وإزالة معالم الشرك، قال جَلَّ وعلا: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[الأنفال: ٣٩]، ما الفتنة؟ الشرك؛ حتى لا يكون الشرك، ويكون الدين أيْ: أنَّ دين الناس كلهم لله، أن

يـدينوا لله، إمـا أنْ يـدينوا اختيـارًا أو خضـوعًا تحـت حكـم الجزيـة، وتحـت حكـم الإسـلام، وهــذا هــو الخضــوع والــذلُّ تحــت حكــم الإســلام، فــلا يــدان في الأرض لغـير الله -عــزَّ وجـلَّ- أو أن يكـون الإنسـان تحـت حكـم الإسـلام، تحـت حكـم الله تبـارك وتعـالى. فهـذا مـن أعظـم أنـواع وأرفـع أنـواع الكفـر بالطـاغوت، وهـو أن يجاهـد الإنسـان هـؤلاء بيـده ولسانه.

* * *

فصل

إذا تقرر عندك أنَّ المشركين لم ينفعهم الإقرار بالله تعالى مع شركهم في العبادة، ولا يُغني عنهم من الله شيئًا، وأن عبادتهم هي اعتقادهم فيهم، أنَّهم يضرون وينفعون، وأنَّهم يُقَرِّبُونَهُم إلى الله زُلْفَى، وأنَّهُم يشفعون لهم عند الله تعالى، فنحروا لهم النحائر، وطافوا بهم.

طبعًا قوله: (**وأن عبادتهم هي اعتقادهم فيهم، أنَّهم يضرون وينفعون**)، يعني بمعنى أنَّهم يتوسطون؛ وإلا الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾[يونس: ١٨]، هم لا يعتقدوا ملكهم النفع والضر، لكن اعتقدوا أنَّ هؤلاء لهم جاه، وأنَّ من تقرَّب إليهم، قرَّبوه إلى الله، وحصل لهم مطلوبهم بهذه الواسطة، لم يعتقدوا استقلالهم النفع والضر، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾[النمل: ٦٢]، أيْ: معناه أنَّهم كانوا يقرِّون أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- لا شريك له في ذلك، أَإِلهٌ مع الله؟ فالجواب أيش؟ لا إله مع الله في هذا، فهم يعلمون أنَّ الله يكشف الضر، ولا يجيب إلا الله، وأنَّ الله هو الذي ينفع ويضر.

فقوله: (**وأن عبادتهم هي اعتقادهم فيهم، أنَّهم يضرون وينفعون**)، من جهة كونهم شفعاء، لا من جهة الاستقلال.

فنحروا لهم النحائر، وطافوا بهم، ونذروا النُّذُور عليهم، وقاموا متذلِّلين متواضعين في خدمتهم، وسجدوا لهم، ومع هذا كُلِّهِ، فهم مُقِرُّون لله -سبحانه- بالرُّبُوبِيَّة، وأنَّه الخالق، ولكنَّهم لمَّا أشركوا في عبادته، جعلهم مشركين، ولم يُعْتَدَّ بإقرارهم هذا؛ لأنَّهُ نافاه فعلهم، فلم ينفعهم الإقرار بتوحيد الربوبية.

لأنه تكذيب؛ الإقرار بالربوبيَّة مع الشرك في الأُلُوهية تكذيب في الإقرار، تقول له: أنت الآن تُقِرُّ بأنَّ الله هو الخالق وحده، وهو الرازق، وهو المدبر، وأنَّ كُلَّ شيء تحت أمر الله فَلِمَ تعبد غيره؟ قال: حتى يقربني إلى الله، نقول: مَنْ قال لك أنَّ التقرب إلى هؤلاء يُقرِّبُ إلى الله؟ أنت

تجعل محض حق الله -عزَّ وجلَّ- لهؤلاء، فحقيقة أمره أنَّه مكذبٌ لنفسه، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦]، يؤمنون بالربوبيَّة ويشركون في الأُلُوهيَّة.

ولذلك هؤلاء تذللوا وخضعوا لآلهتهم لا على أنَّهم شركاء في الخلق والإعطاء والمنع وفي التدبير وفي التصرف وفي الملك، وإنما على أنَّهم شفعاء، فقالوا نحن نتقرَّبُ إليهم، ونفعل لهم هذه الأفعال حتى يقرّبونا إلى الله، فحكمَ الله -عزَّ وجلَّ- بشركهم؛ لأن فعلهم قد ناقضه اعتقادهم، هم يُقرّون بأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- هو الخالق وحده، الرازق وحده، لكنَّهم مع ذلك صرفوا العبادة إلى غيره، وإنْ تقرَّبوا له، أشركوا معه في العبادة، فلم ينفعهم إقرارهم بتوحيد الربوبيَّة مع شركهم في الأُلُوهية.

فمن شأن من أقَرَّ لله تعالى بتوحيد الرُبُوبيَّة أنْ يفرده بتوحيد العبادة؛ فإذا لم يفعلوا ذلك فالإقرار الأوَّلُ باطلٌ.

وقد عرفوا ذلك وهم في طبقات النار فقالوا: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٩٨، ٩٧].

﴿نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هل سوَّوا بينهم وبين الله -عزَّ وجلَّ- في الخلق، في الرزق، في الإعطاء، في المنع؟ ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾[النمل: ٦٢]، كانوا يُقرّون، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾[يونس: ٣١].

إذن ما هي تسوية هؤلاء بالله تبارك وتعالى؟ في العبادة، في المحبة، وفي النذر، وفي الطواف، وفي الاستغاثة، وفي المناداة، في أنواع العبادة، فهؤلاء سوَّوا بين الله -عزَّ وجلَّ-؛ والتسوية ليس معنى ذلك أنْ تجعل هذا مساويًا لله، ولكن بعض العلماء يُعرِّفُ الشرك بأنَّه ماذا؟ قال: تسوية المخلوق بالخالق، جاء آخر قال كيف؟! هؤلاء لا؛ هم ما كانوا يعتقدون هذا؛ لأن التسوية معناها أن تجعله مساويًا له، مَنْ قال هذا؟ ليس معنى التسوية أيْ في منزلةٍ واحدة – كما تظن- ، وإنما تجعله مساويًا أي تجعل له بعض ما يُصرف لله -تبارك وتعالى- ولو اعتقدت أنَّه أدنى من

الله، فهم يعبدون هؤلاء لا على أنَّهم شركاء في الخلق والملك، وهؤلاء مملوكون لله -عزَّ وجلَّ-؛ لكن هذه تسوية، كونك أنت صرفت العبادة لله، ولهؤلاء فقد سوَّيت بينهما؛ بين الله -عزَّ وجلَّ- وبين هؤلاء الأنداد في العبادة، ولو اعتقدت التباين بينهما في المنزلة، لا فرق.

فالتسوية أنْ تجعل شيئًا لله لغير الله، ولذلك لو قال الإنسان إنَّ المخلوق يوصف بالعلم الذي هو من جنس علم الله إلا أنَّ علم الله أعظم من علم المخلوق، ما رأيكم بالكلام هذا؟ لو قال لك قائل بأنَّ سمع المخلوق من جنس السمع الموصوف به الله، وأنَّ الذي يوصف به المخلوق من جنس العلم الذي يوصف به الله -عزَّ وجلَّ- إلا أنَّ علم الله أعظم؛ وسمع الله أعظم، وبصر الله أعظم، لكنه من جنسٍ واحد، باطل؛ بل علم المخلوق ليس من جنس علم الله؛ الشيئان إذا تساويا ولو تفاوتا وتباينا، تساوى في الشيء فإنه يلزم عليهما؛ يلزم على هذا ما يلزم على هذا، ويمتنع على هذا ما يمتنع على هذا، ويجب لهذا ما يجب لهذا.

ولذلك جنس العلم الموصوف به الله ليس هو جنس العلم الموصوف ليس هو جنس العلم الموصوف به المخلوق، ولذلك صفات الله لا تساوي صفات المخلوق أساسًا، وليس من جنسها، وإنما الاشتراك في المعنى الكُلي، وهذا أمر مشترك، ليس في جنس الصفة، يعني ليس ثمة شيء موجود، جزء منه في المخلوق موجود منه جزء في الله -تبارك وتعالى- تعالى الله عن ذلك.

فلو جاء إنسان قال الله -عزَّ وجلَّ- لا؛ نحن نعبد هؤلاء ننذر لهم، نذبح لهم، لكن بينهم وبين الله بونٌ شاسع، نعم أذبح لله، لكن ذبحي لله مع تعظيمي أشد من تعظيمي لهذا، نقول: ما ينفعك؛ لأن هذا هو الشرك.

فالشرك أنْ تسويَّ المخلوق بالخالق، كيف تسوي؟ يعني تجعلهم في منزلة واحدة؛ وأن تجعل له بعض ما هو حقٌ لله وحده، لو قلت أنَّ هذا تصرف في الملكوت، هذا المخلوق له تصرفات في الكون، لكن ليس استقلالًا، لا؛ الله -جَلَّ وعلا- هو المستقل، لكنَّ الله هو الذي أعطاه، فالله -عزَّ وجلَّ- أعطاه تصرف في الملكوت، ولو أوقفه لوقف، ولو قطعه عنه لانقطع، شرك ولا غير شرك؟ شرك، يقول: لا -يا أخي- أنا ما جعلته بل جعلته تحت الله، نقول: لأن التصرف

أساسًا محض حقِّ الله، لم يُجعل لأحدٍ مخلوقٍ قط، لا ملك مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل، فجعلك هذا لله من الشرك بالله -تبارك وتعالى- لأنك سوَّيت بين المخلوق وبين الخالق، وهذا هو الشرك.

﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٩٨، ٩٧]، سوَّاهم في العبادة، لم يسووهم في الخلق والملك، بمعنى أنهم عبدوا الله، وعبدوا غيره، وإنْ كان اعتقادهم في عبادة الله يختلف عن اعتقادهم في عبادة غيره.

مع أنَّهم لم يُسَوُّوهم به من كُلِّ وجهٍ، ولا جعلوهم خالقين، ولا رازقين، ولكن علموا -وهم في قعر جهنم- أنَّ خلطهم الإقرار بذرَّة من ذرَّات الإشراك في توحيد العبادة صيَّرَهُم كمن سوَّى بين الأصنام وبين ربِّ الأنام.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦]، أيْ: ما يُقِرُّ أكثرهم في إقراره بالله، وبأنَّه خلقه، وخلق السماوات والأرض؛ إلا وهو مشركٌ بعبادة الأوثان.

كذا فسَّرها ابن عباس، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦]، يقولون إنَّه هو الخالق الرازق وهم مشركون في العبادة، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ أيْ: بالربوبيَّة، وهم مشركون في الأُلوهية.

بل سمَّى الله تعالى الرِّيَاء في الطاعات شركًا، مع أنَّ فاعل الطاعة ما قصد بها إلا الله تعالى، وإنَّما أراد طلب المنزلة بالطاعة في قلوب الناس.

المرائي يعبد الله، ما عبد غير الله، لو عبد غير الله -عزَّ وجلَّ- كان مشركًا، يعبد الله لكنه أراد أن يمدحه الناس على عبادة الله، أيْ: نوى بهذه العبادة فائدة غير التقرب إلى الله -تبارك وتعالى-؛ العبادة الأصل أن ينوي الإنسان بها التقرب إلى الله، والزلفى منه، لا يطلب على ذلك أجرًا ولا ثناءً، ولا مالًا، وجاهًا، هذه العبادة التي يرضها الله -عزَّ وجلَّ-.

فلو جاء إنسان عبد الله ولم يقصد بعبادته غير وجهه ولكنَّه أراد بذلك مصلحةً دنيويَّة، أيْ: أراد نفعًا آخر غير التقرب إلى الله -عزَّ وجلَّ- بأنْ يمدحه الناس، وأنْ يثنوا عليه على هذا، كان مشركًا بالله -تبارك وتعالى- لكنه شركٌ أصغر.

فإذا كان مجرد العابد لله؛ المرائي عابدًا لله ما أشرك بالله في العبادة، مجرد أنَّه طلب في عبادته لله -عزَّ وجلَّ- حظًّا دنيويًّا كان بذلك مشرك، والعمل حابطٌ، فكيف بمن تقرَّب بهذه العبادة لغير الله تبارك وتعالى؟ لا شك أنَّه أعظم شركًا، وهذا هو الشرك الأكبر.

ولذلك يسير الرياء يقود إلى كثيره، بأنْ يشرك الإنسان في أصل الدين، كثير الرياء أن يشرك في أصل الدين؛ بمعنى أن يوحد طلبًا لمدح الناس وثنائهم أو لحظٍّ دنيوي.

فالمُرَائِي عبد الله، لا غيره لكنه خلط عبادته بطلب المنزلة في قلوب الناس.

فلم تُقبل له عبادة، وسمَّاها شركًا، كما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة - ﷺ- قال؛ قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».

أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك مع الله غيره ولو كان بأدنى شيء، تركه الله وشركه، فإنَّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، العبادة كُلُّها لا تنوي بها غير وجه الله -تبارك وتعالى- متى ما نويت بها حظًّا دنيويًّا لم يجعله الله فيها، فهذا مشرك، كمن يريد بذلك الثناء، والمدح، أو الجاه، أو المنصب، أو رضى بعض المخلوقين فهذا شرك، أما من عبد الله -عزَّ وجلَّ- وقصد وجهه ثم أراد شيئًا علَّقه الله -عزَّ وجلَّ- به، فهذا ينقص أجره، كمن جاهد لله ولأجل تحصيل على الغنائم؛ الغنائم جعلها الله لمن جاهد في سبيله، فهو طلب شيئًا مما جعله الله -عزَّ وجلَّ- لمن سلك هذا الطريق، فهنا لم يكن مشركًا لكنه قد نقص أجره بقدر ما نوى شيئًا من الدنيا، لكن هذه الدنيا معلَّقة بهذه العبادة، وصل رحمه لأجل أنْ يبسط له في رزقه، وأنْ يُنسأ له في أثره، نقول هو مأجورٌ على وصل الرحم، طالما هو يقصد وجه الله، لكنه كونه قد نوى هذا؛ فهذا أنقصُ ممن لم ينوي إلا وجه الله، ولم يلتفت لا إلى دنيا، ولا إلى طول العمر ولا إلى غيره، ولا يريد إلا التقرب إلى الله -عزَّ وجلَّ- لا شك أنَّ هذا أعظم، لكن من طلب بصلته الأرحام أن يطول عمره، هل طلب شيئًا يكون به مشركًا؟ لا؛ لأنه طلب ما جعله الله لمن سلك هذا، وفرق أن يطلب الإنسان شيئًا جعله الله -عزَّ وجلَّ- لمن يسلكه؛ وبين أنْ يطلب شيئًا لم يجعله الله -عزَّ وجلَّ- ولم يرتبه عليه.

بـل سمَّـى الله تعـالى التسـمية بعبـد الحـارث شـركًا، كمـا قـال تعـالى: ﴿فَلَمَّـا آتَاهُمَـا صَـالِحًا جَعَـلَا لَـهُ شُـرَكَاءَ فِيمَـا آتَاهُمَـا﴾[الأعراف: ١٩٠]، فإنَّهُ أخـرج الإمام أحمـد بـن حنبـل -رحمـه الله-، والتِّرمـذيُّ مـن حـديث سمـرة بـن جنـدب -ﷺ- أنَّـه قـال-صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لما حملت حـواء-وكـان لا يعـيش لهـا ولـدٌ- طـاف بهـا إبلـيس، وقـال: لا يعـيش لـك ولـدٌ حـتَّى تُسَـمِّيه عبـد الحـارث؛ فسـمَّتْهُ فعـاش! وكـان ذلـك مـن وحـي الشـيطان، وأمـره، فـأنزل الله الآيات وسمَّـى هـذه التسـمية شـركًا، وكـان إبلـيس تسـمَّى بالحارث».

والقصة في "الدُرِّ المَنْثُور" وغيره.

إذا كـان مجـرد التسـمية بعبـد الحـارث شـركًا، كمـا سمَّـاه الله ﴿أَيُشْـرِكُونَ مَـا لَا يَخْلُـقُ شَـيْئًا وَهُـمْ يُخْلَقُـونَ﴾[الأعـراف: ١٩١]، وقـال: ﴿فَلَمَّـا آتَاهُمَـا صَـالِحًا جَعَـلَا لَـهُ شُـرَكَاءَ﴾[الأعـراف: ١٩٠]، شـركاء في التسـمية فقـط؛ لأنـه لا يُعبَّـد أحـد إلا لله، فعبـد الله، فعبـد الـرحمن، وهـم لا يعتقـد بأنَّ أيـش؟ بأن هـذا عبـد للحـارث اللـي هـو إبلـيس لكـن دفعهـم حـبُّ الولـد إلى أن يسـموه بهـذه التسـمية، وظنُّوهـا جـائزًا، فسـمَّاه الله -عـزَّ وجـلَّ- شـركًا، فـإذا كـان مجـرد التسـمية مـن غـير اعتقـاد لحقيقـة معناهـا شـركًا فكيـف بمـن اعتقـد معناها.

* * *

فصل

وقد عرفت من هذا كله أن من اعتقد في شجرٍ أو حجرٍ أو قبرٍ أو ملكٍ أو جِنِّيٍّ أو حَيٍّ أو مَيْتٍ، أنه ينفع أو يضر أو أنَّه يُقَرِّبُ إلى الله، أو يشفع عنده في حاجةٍ من حوائج الدنيا، بمُجَرَّدِ التَّشَفُّعِ به، والتَّوسُّل إلى الرَّبِّ تعالى، إلَّا ما ورد في حديثٍ فيه مقالٌ، في حَقِّ نبيِّنا مُحمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أو نحو ذلك، فإنه قد أشرك مع الله غيره، واعتقد ما لا يَحِلُّ اعتقادُهُ، كما اعتقد المشركون في الأوثان.

فضلًا عمَّن يَنْذُرُ بماله، وولده لِمَيْتٍ، أو حيٍّ أو يطلب من ذلك الميت ما لا يُطْلَبُ إلَّا مِن الله تعالى من الحاجات، من عافية مريضه أو قدوم غائبه، أو نيله لأيِّ مطلبٍ من المطالب، فإنَّ هذا هو الشرك بعينه الذي كان عليه عُبَّادُ الأصنام.

والنذر بالمال على الميت ونحوه، والنَّحْرُ على قبره، والتَّوسُّلُ به، وطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية.

يذكر الشيخ -رحمه الله- أنواع الشرك ويقول: (**أن من اعتقد في شجرٍ أو حجرٍ أو قبرٍ أو ملكٍ أو جِنِّيٍّ أو حَيٍّ أو مَيْتٍ، أنه ينفع أو يضر**)، هذا الشرك؛ حتى لو لم يعبده، وهذا الشرك من أيِّ جهة؟ من جهة الربوبيَّة، أيْ من اعتقد في مخلوقٍ أنه ينفع ويضر، أي يملك النفع والضر فقد جعل فيه صفة الله، فإن النفع والضر من أفعال الله، فمن جعل بعض أفعال الله لغير الله فقد أشرك.

قال: (**أو أنَّه يُقَرِّبُ إلى الله**)، أيْ: لا ينفع ولا يضر ولكنه يقرِّبُ إلى الله -عزَّ وجلَّ- فيتخذه شفيعًا.

ولذلك يقول الشيخ: (**أو يشفع عنده في حاجةٍ من حوائج الدنيا، بمُجَرَّدِ التَّشَفُّعِ به، والتَّوسُّل**)، أيْ: من عبده طلبًا لشفاعته، وهذا هو عين شرك المشركين،

ولذلك لا فرق بين من يعبد ملكًا أو جِنِّيًّا أو نبيًّا أو صالحًا وهو يعتقد أنه ينفع ويضر؛ وبين من يعبده وهو يعتقد أنه شفيع.

الفرق بينهما أنَّ من اعتقد مع عبادته للوليّ؛ من اعتقد فيه النفع والضُّر فقد كفر أو أشرك من جهتين: (**من جهة الربوبيَّة؛ حيث نسب له بعض أفعال الله، ومن جهة الأُلوهيَّة حيث عبده**)، وأما من عبده مع اعتقاده أن الله هو النافع والضار، ولكنه اتخذه شفيعًا فهذا هو الشرك الذي كان يقع فيه أهل الجاهلية وهو شركٌ في الأُلُوهيَّة، فإنَّ الله -عزَّ وجلَّ- إنما أثبت للمشركين إقرارهم بالربوبيَّة وشركهم من جهة الأُلُوهيَّة، أما من جمع بين الشركين وهذا لم يقع من العرب؛ فهذا أغلظ شركًا، وإلا فإنَّ الحكم واحد؛ لأن التوحيد ثلاثُ أقسام:

- إفراد الله بأفعاله؛ وهو توحيد الربوبيَّة.
- وإفراد الله -عزَّ وجلَّ- بالعبادة؛ وهو توحيد الأُلُوهيَّة.
- وإفراد الله -جَلَّ وعَلا- بأسمائه وصفاته؛ وهو توحيد الأسماء والصفات.

فيكون الإنسان مشركًا حيث وقع بالشرك في أيِّ نوعٍ من هذه الأنواع، فمن وقع في كُلِّها فهو قد أشرك شركًا أغلظ من غيره، وإلا فإن الكُلَّ مشركون، فإنَّ الكفر درجات؛ الكفر درجات يعني هناك من هو كافر وهناك من هو أكفر منه، كما قال -جَلَّ وعلا-: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[النحل: ٨٨]، فالذي يكفر ويزيد عليه الطغيان والتعدي وما شابه ذلك فكُلُّ هذا من الشرك؛ لأنه اعتقد فيهم ما لا يَحِلُّ إلا لله، فإن العبوديَّة والأُلُوهيَّة لله، يعني يجب أن تكون عبوديَّةِ العبد لله، وأن يعتقد أنه هو الإله المعبود فمن صرف شيئًا من ذلك لغير الله كان مشركًا، ومن اعتقد فيه النفع والضُّر كان مشركًا أيضًا، وهكذا.

ثم ذكر الشيخ -رحمه الله- أنَّ النذر للميت، والنحر عند القبر هذا هو الذي كانت تفعله أهل الجاهلية، ولذلك مما يفسِّر العبادة التي هي محض حق الله أن تنظر في أفعال أهل الجاهلية لأصنامهم وأندادهم، وأوليائهم الذين كانوا يعبدونهم، اقرأ ما كتبه الأزرقي في أخبار مكة، والفاكهي وغيرهم، وما ذكره ابن إسحاق، وأهل السِّير في حال أهل الجاهلية قبل بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- ما الذي كان يفعلونه عند الأضرحة والأصنام وغيرها؟ ما الذي كانوا يفعلونه؟ وكان أيش؟ وقد عُدَّ ذلك شركًا، ما الذي كانوا يفعلونه؟ هو الاستغاثة بهم، والتبرك، والعكوف عند قبورهم، والنذر، والذبح، والطواف هذه هي الأفعال التي هي عبادة، وهي التي جاء النبي -عليه الصلاة والسلام- ليأمرهم أن يصرفوها لله.

ولذلك النظر في أفعالهم يفسر لك العبادة، وتعرف أن هذه الأمور هي التي من أجلها حكم الله على قريش والعرب بالشرك؛ لأنهم صرفوها لمن عبدوهم من دون الله تبارك وتعالى، فمعرفة حال أهل الجاهلية يُعرِّفُكَ بالعبادة التي النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالأمر بأن يجعلوها لله.

يقول الشيخ: (**إلَّا ما ورد في حديثٍ فيه مقالٌ، في حَقِّ نبيِّنا**)، والمراد بذلك حديث الأعمى الذي جاء يتوسَّلُ بالنبي -عليه الصلاة والسلام- وقال الرجل الأعمى فادعوا الله لي، قال: «**إن شئت صبرت، وإن شئت دعوت لك**»، قال: فادعُ، ثم علَّمه النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يصلي ويدعوا الله بهذا الدعاء، وأن يقول في دعائه: اللهم فشفعه فيَّ، أيْ: اقبل شفاعة محمَّدٍ فيَّ، والمراد بالشفاعة هنا الدعاء؛ لأن الداعي لك شفيعٌ لك، هو يدعوا الله -عزَّ وجلَّ- أن يغفر الله لك أو أن يكشف الله كربك، أو أن يرزقك الشفاء ويزيل مرضك، هو وسيط، هو شافع، ولذلك قوله في الحديث؛ حديث الأعمى اللهم شفعه فيَّ، دلَّ على أن النبي -عليه الصلاة والسلام- دعا له، وإلا لو لم يدعُ له لَمَا كان قوله: فشفعه فيَّ؛ لم يكن له معنى، فكونه يقول: اللهم شفعه فيَّ دلَّ على أنه هناك شفاعة كانت من النبي -عليه الصلاة والسلام-

وهـي الـتي جـاء الأعمـى لطلبهـا؛ جـاء يطلـب مـاذا؟ الـدعاء، فخـيَّره بـين الصـبر وبـين الـدعاء، قـال: لا، ادعُ، ثم علَّمـه أن يصـلي وأن يـدعوا، بمعـنى أن النـبي -صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ- دعـا لـه، وطلـب منـه أن يسـأل الله أن يتقبـل دعـاء نبيِّـه فيـه، وهـذه باتفـاق الصـحابة جـائزة في حيـاة أيـش؟ في حيـاة الـداعي والشـافع، كـأن يـذهب الإنسـان لرجـل صـالح يقـول لـه ادعُ الله لي، ثم يـدعوا لـه هـذا الصـالح ثم يقـول اللهـم يا رب تقبـل دعائـه فيَّ، تقبـل شـفاعته فيَّ، وهـذا كـان في حـال حياتـه. وجـاء في بعـض الألفـاظ أن هـذا الرجـل عثمـان بـن حنيـف -ﷺ- أنـه أمـر رجـلًا بعـد وفـاة النبي -عليـه الصـلاة والسـلام- أن يقـول هـذا، هـذه زيادة شـاذة، ضـعيفة، لـذلك يقـول: **(إلَّا مـا ورد في حـديثٍ فيـه مقـالٌ)**، أنـه يـدعوا بهـذا الـدعاء، أنـه يقـول بعـد موتـه؛ بعـد مـوت النبي اللهـم فشـفعه فيَّ، وهـذا لا يسـتقيم معـنًى، كيـف يقـول فشـفعه فيَّ والنـبي -عليـه الصـلاة والسـلام- لم يصـدر منـه شـفاعة؟! لا يقـال هـذا إلا لمـن شـفع فيـه النـبي -عليـه الصـلاة والسـلام- وذلـك بدعائـه، فالحـديث فيـه مقـال، ولـو صـح لم يكـن دلـيلًا؛ لأن هـذا هنـا أيـش؟ لـيس فيـه دعـاء الميت، والاسـتغاثة بـه، والـذبح لـه، وإنمـا المراد بـذلك مـاذا؟ دعـاء، يعـني الـذي قالـه عثمـان بـن حنيـف في الروايـة هـذه الشـاذة أنـه قـال لرجـل ذهـب لعثمـان أراد حاجـة، قـال: قـل هـذا الـدعاء يتحقـق مطلوبـك. فـدلَّ علـى أن الحـديث لـو صـح فـالمراد بـه أن هـذه الصـيغة لـو دعـا بهـا الإنسـان تحقـق مـراده، فهـو صـيغة دعـاء، وبالألفـاظ فشـفعه فيَّ، لم يقـل عثمـان بـن حنيـف اذهـب إلى قـبر النـبي -عليـه الصـلاة والسـلام- واطلـب منـه كـذا كمـا فعـل؛ ولكـن قـال ادعُ بهـذا الـدعاء الـذي علَّمـه النـبي -عليـه الصـلاة والسـلام- الرجـل الأعمـى، فـدلَّ علـى أن المسـألة أساسًـا لـو صـحت إنمـا هـي صـيغة دعـاء يـدعو بـه الإنسـان، والأمـر في هـذا سـهل، لـو صـح؛ الأمـر في هـذا سـهل. وإنمـا النـزاع اليـوم في دعـاء المـوتى والاسـتغاثة بهـم، وفي سـؤال النـبي -عليـه الصـلاة والسـلام- وسـؤال الحاجـات والطلـب منـه، هـذا هـو النـزاع، ولـيس في الحـديث أن عثمـان بـن حنيـف قـال لهـذا الرجـل الـذي كـان في عهـد عثمـان أن يـذهب إلى قـبر النـبي -عليـه الصـلاة والسـلام- وإنمـا علَّمـه الـدعاء فقـط، هـذا لـو صـحت الروايـة والحـديث شـاذ. ولـذلك أساسًـا هـذه القصـة ليسـت فيما نحن فيه أساسًا من النزاع وهو دعاء الموتى، والاستغاثة بهم، والذبح ونحو ذلك.

وإنَّمَا يفعلونه لِمَا يسمُّونَهُ وثنًا وصنمًا، وفعله القُبُوريُّون لِمَا يسمُّونَهُ وليًّا وقبرًا ومشهدًا، والأسماء لا أثر لها، ولا تغيرُ المعاني.

يقول: (**يفعلونه لما يسمونه وثنًا وصنمًا**)، والعلماء يقولون إن الصنم ما نُحت على صورة، والوثن ما عبد ولم يُنحت على صورة، فالصنم هو المنحوت، وأما لو عبد الإنسان شجرة كانت وثنًا، لو عبد حجرًا كان وثنًا، لو عبد قبرًا كان وثنًا، لماذا؟ لأنه ليس منحوتًا على صورة، والقبر إذا عبد صاحبه صار وثنًا، في قول النبي -عليه الصلاة والسلام-: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد»، دلَّ على أنه لو عبد قبره لصار وثنًا، ولذلك هذا يدلُّ على أن عبَّاد القبور اليوم والأولياء هم عبَّاد أوثان، وهذه القبور والأضرحة التي تعبد من دون الله هي أوثان، وكم عدد الأوثان في بلاد المسلمين؟ كثيرة جدًّا، لا حصر لها، والله المستعان. فدلَّ على أن القبوريين هم عبَّاد أوثان؛ لأن كُلَّ من عبد قبرًا أو حجرً كان عابدًا لوثن، والنبي -عليه الصلاة والسلام- دعا ربه أن لا يصير قبره وثنًا يعبد، فاستجاب الله دعوته وحمى قبره، فدفن في بيته، ولم يكن أحد يدخل في وقت حياة عائشة، فلما ماتت عائشة ﵂ أغلقت الحجرة، ثم سُوِّرَ بسور ثانٍ وثالث ورابع حتى حمى الله -عزَّ وجلَّ- هذه البقة فلا يستطيع أحد قط أن يصل إلى قبره، وأن يفعل بقبره ما يفعل في سائر القبور.

والأسماء لا أثر لها، ولا تغيِّرُ المعاني، ضرورةٌ لغويَّةٌ، وعقليَّةٌ، وشرعيَّةٌ، فإنَّ من شرب الخمر وسمَّاها ماءً! ما شرب إلا خمرًا، وعقابه عقاب شارب الخمر، ولعلَّهُ يزيد عقابُهُ للتَّدليس، والكذب في التَّسمية.

وقد ثبت في الأحاديث «أنَّه يأتي قومٌ يشربون الخمر يُسَمُّونَهَا بغير اسمها».

وصدق -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإنه قد أتى طوائف من الفسقة يشربون الخمر ويسمونها نبيذًا.

وأوَّل مَن سمَّى مَا فيه غَضَبُ الله، وعصيانُهُ بالأسماء المحبوبة عند السامعين إبليس لَعَنَهُ الله، فإنَّه قال لأبي البشر -آدم عليه السلام-: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ

﴿عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[طه: ١٢٠]، فسمَّى الشجرة التي نهى الله آدم عن قُرْبَانِهَا شجرة الخلد، جذبًا لطبعه إليها، وهزًّا لنشاطِهِ لِقُرْبَانِهَا وتدليسًا عليه بالاسم الذي اخترعه لها.

كما يُسَمِّي إخوانُهُ المقلِّدُون له الحَشِيشَةَ بـ "لقمة الرَّاحَةِ"، وكما يُسَمِّي الظَّلَمَةُ ما يقبضونه من أموال عباد الله ظلمًا وعدوانًا أدبًا!! فيقولون: "أدبُ القتل"، و"أدبُ السرقة"، و"أدب التُّهمة"، بتحريف اسم الظُّلم إلى اسم الأدب!! كما يحرفونه في بعض المقبوضات إلى اسم "النِّفَاعَةِ"، وفي بعضها إلى اسم "السِّيَاقَةِ" وفي بعضها "أدب المكاييل والموازين".

وكُلُّ ذلك اسمه عند الله ظُلْمٌ وعدوانٌ، كما يعرفه من شَمَّ رائحة الكتاب والسُّنَّة، وكُلُّ ذلك مأخوذ عن إبليس؛ حيث سمَّى الشجرة المنهيِّ عنها "شجرة الخُلد".

يعني أن المشركين كانوا يعبدون الأوثان والأصنام، ومشركو هذا الزمان يعبدون المشاهد والأضرحة والمقامات، وهذه هي في الحقيقة أوثان، ولا فرق أن تسمي القبر وثنًا إذا كان معبودًا أو تسمية مشهدًا ضريحًا، مقامًا، هذا التغيير في الأسماء لا يغير المعاني والأحكام.

وكذلك تسمية القبر "مشهدًا"، ويعتقدون فيه "وليًّا" لا يُخْرِجُهُ عن اسم "الصنم" و"الوثن"، إذْ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام، ويطوفون بهم طواف الحُجَّاجِ ببيت الله الحرام، ويستلمونها استلامهم لأركان البيت، ويخاطبون الميت بالكلمات الكفريَّة، من قولهم: على الله وعليك، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها، وكُلُّ قومٍ لهم رَجُلٌ ينادونه.

هذا هو عبادة الميت، هو الذي كان يفعله المشركون عند القبور، عند الأوثان، عند الأصنام، الهتاف بأسمائهم، وطلب عندهم الحاجات، والعكوف عندهم، واستلامهم، والطواف بهم، هذا كما كان يفعل عند الأصنام، وهو الذي يفعله مشركون اليوم والقبوريون عند المشاهد والأضرحة والمقامات، فالحكم واحد، وإن تغيرت المسميات.

وَكُلُّ قومٍ لهم رَجُلٌ ينادونه فأهل العراق والهند يَدْعُونَ عبد القادر الجيلاني.

عبد القادر الجيلاني هو معروف أنه من الحنابلة، وله أقوال في الفقه معروفة، وينقلون الحنابلة أقوله، وكان من العبَّاد وأهل الزهد،، لكنه على عقيدة أهل السنة والجماعة، وله كتاب "الغُنية"، ذكر فيه من العقائد ما يوافق عقيدة أهل السنة والجماعة، وكل ما يفعل اليوم مما ينسب إليه من الكرامات ونحو ذلك، كله لم يفعل به في حياته، وإنما أتوا إليه لما كان معروفًا به من الزهد والتعبد فجعله إلهًا يعبدونه من دون الله.

والطريقة التي تعبده تسمى بالرفاعية، وهي مشهورة في الهند، وكذلك في الشام.

- **وأهل التَّهَائم لهم في كُلِّ بلدٍ ميتٌ يهتفون باسمه، يقولون: "يا زَيْلَعِيُّ"، "يا ابن العُجيَلِ".**
- **وأهل مكة، وأهل الطائف: "يا ابن العباس".**
- **وأهل مصر: "يا رفاعي"، "يا بدوي"، و"السادة البكرية".**
- **وأهل الجبال: "يا أبا طير".**
- **وأهل اليمن: "يا ابن عَلْوَانَ".**

وفي كُلِّ قرية أمواتٍ يهتفون بهم، وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير، ودفع الضَّرِّ، وهو بعينه فِعْلُ المشركين في الأصنام.

هذا يدل أن عامة بلاد المسلمين في وقت الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب -رحمه الله- كانت على هذا المنوال، ما في مكان إلا وقد وقع فيه صور الشرك؛ بل إن رجلًا لما ذهب إلى الطائف يقول: إن أهل الطائف لا يعرفون الله، لا يعرفون إلا العباس! لكثرة ما يسمعهم يدعون العباس أكثر من دعائهم لله، فهذا يدل على أن حال الناس في تلك الأعصار كان حالًا أشبه بحال الجاهلية الأولى.

وهو بعينه فِعْلُ المشركين في الأصنام كما قلنا في الأبيات النَّجدِيَّةِ:

أعادوا بها معنى سواعًا ومثله ... يغوث وودٍّ، بئس ذلك مِنْ وَدّ!
وقد هتفوا عند الشدائد ... كما يهتف المُضْطَّرُ بالصَّمَدِ الفَرْدِ!
وكم نحروا من سُوحِهَا مِن نَحيرةٍ ... أُهِلَّتْ لغير الله جَهلًا على عمدِ!
وكم طائفٍ حول القبور مُقَبِّلًا ... ويستلم الأركان مِنْهُنَّ بالأيدِي!

يقول: (**كما قلنا في الأبيات النَّجدِيَّةِ**)، هذه الأبيات هي التي امتدح فيها دعوة الإمام محمَّد بن عبد الوهاب، ومعلوم أن هذه الكتاب آخر ما نُسِخَ؛ حيث نُسِخَ قبل وفاة الصنعاني بسنتين، ولذلك استدل الشيخ سليمان بن سَحْمَان على أن الأبيات التي رجع فيها عن مدح الإمام وعن الثناء عليه، وعن الدعوة أنها أبياتٌ مكذوبة على الصنعاني، مختلقة عليه. واستدل بأن هذا الكتاب طبع، وهو مكتوبٌ بيد الصنعاني، وقد كتب في آخر ما نسخ قبل وفاة الصنعاني بسنتين، ومع ذلك أثبت فيها هذه الأبيات التي امتدح فيها الإمام محمَّد ابن عبد الوهاب، أي أثبتها، فدلَّ على أنه لم يرجع عن هذه الأبيات أساسًا، ولم يرجع عن مدحه، هذا من الأدلة التي استدل بها بعض العلماء على أن الأبيات التي نسبت إلى الصنعاني في رجوعه أنها مكذوبةٌ عليه.

فإن قال: إنما نحرت لله، وذكرت اسم الله عليه.

فقل له: إنْ كان النَّحْرُ لله فلأيِّ شيء قَرَّبتَ ما تنحرُهُ من باب مشهد من تُفَضِّلُهُ وتعتقد فيه؟

هل أردت بذلك تعظيمه؟

إن قال: نعم!

فقل له: هذه النحر لغير الله!

بل أشركت مع الله تعالى غيره.

وإن لم تُرِدْ تعظيمه، فهل أردت توسيخ باب المشهد، وتنجيس الداخلين إليه؟

أنت تعلم يقينًا أنَّك ما أردت ذلك أصلًا، ولا أردت إلَّا الأوَّلَ، ولا خرجت من بيتك إلا قصدًا له. ثم كذلك دعاؤهم له.

فهذا الذي عليه هؤلاء شركٌ بلا ريبٍ.

يعني أن الذي يأت ويذبح عند الموتى والقبور المعظَّمة، طبعًا صورة فعله أنه شرك، طيب، قد يقول قائل: إن هذا الرجل يذبح لله، لكن هذا بعيد؛ يعني كأنه يقول: بأن من ذبح لله بجانب القبر، عند القبر والمشهد الذي يُعَظَّم عند الناس؛ من جاء وذبح أن هذا شركٌ أكبر، وأن فعله هذا دليل على أنه إنما أراد بذلك التقرب، يقول: (**لو ادَّعى أنني نحرت لله، وقصدت بذلك وجه الله، ذكرت اسم الله**)، فقل له: هل أردت بالنحر تعظيم الميت، فإن قال نعم؛ فهذا هو الشرك، ولو ذكرت اسم الله، فإن ذكر اسم الله لا يؤثر إذا قصدك لغير الله، ولذلك الذبيحة يُشترط فيها شرطان: (**أن يقصد الإنسان بها وجه الله، وأن يذكر اسم الله عليها**)، فإن ترك أحدهما كان مشركًا؛ أي: إن قصد بها غير وجه الله كان مشركًا، وإن سمَّ غير الله كان مشركًا، فذكر غير اسم الله من باب شرك الاستعانة؛ لأن بسم الله أيْ: بسم الله أستعين، فإذا قال بسم المسيح، بسم كذا، هذا من باب الاستعانة، ولو قصد بها وجه الله، ولو ذكر اسم الله وذبح لغير الله كان من شرك العبادة، فإن جمع بينهما كان قد جمع بين الشركين؛ شرك العبادة، وشرك الاستعانة.

فيقال له: هل أنت ذبحت تعظيمًا له؟ قال: نعم، قال هذا هو الشرك، فإن قال لا؛ أنا ما ذبحته إلا لله، وتعظيمًا لله، نقول: ماذا أردت إذن؟ هل أردت توسيخ وهذا مكان معظم وأردت تنجيسه بهذا الدم؟ طبعًا قد يقول قائل: قد يكون هذا الرجل يظن أن الذبح بجانب القبر فيه بركة، وأنه ذبح لله، نقول وهذا محتمل، ولذلك لا يجزم بمجرد فعله أن يكون مشركًا حتى يُستوضح منه، إلا إن عُلم أن الناس لا يقصدون إلا لهذا، ولا يذبح عنده إلا من عبدوه، حينئذٍ يمكن حمل فعلهم على فعل المشركين، أما لو فرضنا أن الجهل قد يقع عند بعض الناس، وأن بعض الناس يظن أن هذا المكان

مبارك ويذبح لله حتى يقبل الله أضحيته أو ذبيحته، هنا حينئذٍ يكون عذرًا، وإن كان هذا قد يكون فيه بعد، لكنه محتمل، أيضًا.

وقد يعتقدون في بعض فسقة الأحياء، وينادونه في الشدة والرخاء، وهو عاكف على القبائح والفضائح، ولا يحضر حيث أمر الله عباده المؤمنين بالحضور هناك، ولا يحضر جُمْعَةَ، ولا جماعةَ، ولا يعود مريضًا، ولا يشيع جنازة، ولا يكتسب حلالًا، ويضم إلى ذلك دعوى التَّوكُّلِ وعلم الغيب.

ويجلب إليه إبليس جماعة قد عشش في قلوبهم وباضَ فيها وفرَّخَ، يصدِّقون بُهْتَانَهُ، ويعظِّمُون شأنه، ويجعلون هذا ندًّا لربِّ العالمين، ومِثلًا.

فيا للعقول أين ذهبت؟ ويا للشرائع كيف جُهِلَتْ؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[الأعراف: ١٩٤].

طبعًا هذا مذكور أيضًا؛ يعني هذا مشهور عن كثير من الأولياء الذين يدَّعون أنَّ فيهم الولاية، هم ينقلون عنهم الفسق والفجور؛ حتى أحمد البدوي هذا، أكبر مشهد في مصر، قد ذكروا في ترجمته أنه كان رجلًا فاسقًا فاجرًا، يأتي القبائح والفواحش، وهم ينقلون هذا عنه، وقد ذكر ذلك الشعراني في طبقاته، يذكر في طبقات الصوفيَّة له عن أولياء الصوفيَّة قبائح؛ حتى إنه يذكر أنهم يفعلون الفاحشة في الحمير، ويذكر عن بعضهم أنه لا يصلي، يقول وكان رحمه الله لا يصلي! رحمه الله ولا يصلي! ويذكر عن بعضهم فعل الزنا وغير ذلك، لكنهم يرون هذا على سبيل فعل الخضر، ولذلك هم يُعظمون قصة الخضر جدًّا؛ لأن الخضر كان يفعل الشيء في ظاهر الأمر أنه منكر وفي حقيقته أنه بأمر الله، فقتل هذا بأمر الله، ظاهره منكر لكنه قتله؛ لأن الله أطلعه على حال هذا الصبي، خرق السفينة في ظاهره أنه منكر، لكنه لأنه يعلم أن ملك سيأخذها إن وجدها صحيحة، بنى الجدار لناس ظلموه ولم يُأدوا الحق؛ لأنه يعلم كذا، فهم يستدلون بهذه القصة حتى يزينوا أفعال أئمتهم، وأنك تراه يزني وهو لا يزني يعبد الله. ولذلك هذا؛ أين العقول هذه التي تشاهد هذا؟! الأنبياء -عليهم السلام- كانوا أنزه الناس، وأبعد الناس، يكون هؤلاء خيرًا من الأنبياء.

فإن قلتَ: أيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور والأولياء والفسقة والخلعاء مشركين كالذين يعتقدون في الأصنام؟

قلت: نعم، وقد حصل منهم ما حصل من أولئك وساووهم في ذلك، بل زادوا في الاعتقاد والانقياد والاستعباد فلا فرق بينهم.

ويصلح أن تكون العبارة (**قد حصل فيهم ما حصل في أولئك**)، أيْ هؤلاء المعبودون حصل فيهم ما حصل في أولئك فإن أولئك الأصنام في الجاهلية كانوا يذبحون لهم، وينذرون لهم وما شابه ذلك، فقد حصل في هؤلاء المعبودين كما حصل في أولئك، فإن قيل: (**قد حصل منهم**) أيْ: من العابدين، (**ما حصل من أولئك**)، أيْ: المشركين.

فإن قلت هؤلاء القبوريون يقولون: نحن لا نشرك بالله تعالى، ولا نجعل له ندًّا، والالتجاء إلى الأولياء والاعتقاد فيهم ليس شركًا!

قلتُ: نعم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[آل عمران: ١٦٧]**، لكنَّ هذا جهلٌ منهم بمعنى الشرك، فإن تعظيمهم الأولياء ونحرهم النحائر لهم شرك والله تعالى يقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾**[الكوثر: ٢]**. أيْ: لا لغيره، كما يفيده تقديم الظرف.**

ويقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن: ١٨]**، وقد عرفت بما قدمناه قريبا أنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد سمى الرِّياء شركًا، فكيف بما ذكرناه؟**

فهذا الذي يفعلونه لأوليائهم هو عين ما فعله المشركون، وصاروا به مشركين، ولا ينفعهم قولهم: نحن لا نشرك بالله شيئًا؛ لأنَّ فِعْلَهم أَكْذَبَ قَولَهم!

يقول هؤلاء الذين لو قالوا؛ ليس حال عبَّاد الأولياء كحال عبَّاد الأصنام، نقول ما الفرق؟ إنما عبَّاد الأصنام حكم بشركهم؛ لأنهم صرفوا هذه العبادات للأصنام، فذبحوا لهم، ونذروا لهم، وطافوا بقبورهم، وهتفوا بأسمائهم، وفعلوا لهم هذه الأشياء التي تفعل في الأضرحة والمقامات، لا فرق، فإن غير الله -عزَّ وجلَّ- لا يستحق العبادة، مهما

كان، فلا فرق بين أن يكون المعبود نبيًّا أو حجرًا أو صنمًا، ثم إن هذه الأصنام التي عبدت هو لم يرد عبادة الصنم إنما عبدوا من يرمز له الصنم، كاللات الذي كان يلت السويقة للحاج، وهذه الأصنام أساسًا كود وسواع أول شرك وقع؛ هذه الأصنام هي رموز، ترمز لأولئك، فحقيقة عبادة الصنم هي عبادة الولي.

ولذلك لو قال: (**نحن لا نشرك بالله، ولا نجعله ندًّا، وليس هذا شركًا**)، نقول هذا كلام تقولونه بأفواهكم، فإن فعلكم هذه العبادة صرفكم للأولياء وللقبور هو الشرك بعينه؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- أمر أن تصرف هذه العبادة لله فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[الكوثر: ٢]، أيْ: وانحر له، أيْ: فكما يصلي الإنسان يتقرب بذلك لله، ويتعبده وينحر له تعبدًا، كذلك لو فعل الصلاة لغير الله كان عبدًا لغير الله، ولو نحر لغير الله كان عبدًا لغير الله، والدعاء ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن: ١٨]، أحدًا يعمُّ جميع؛ كل أحد مما سوى الله، فدلَّ أن لا يدعى مع الله أحد، ولو كان صنمًا ولو وليًّا.

وإذا كان الله -عزَّ وجلَّ- والنبي -عليه الصلاة والسلام- سمَّى الرياء شركًا، فكيف بهذه الأفعال التي هي محض حق الله، وهذا الفعل الذي يفعلونه في القبور والمشاهد هو عين ما يفعله المشركون في الأصنام، ولا فرق بين المعبودات كُلِّها، سواءً كانت أصنامًا أو أحجارًا أو كانت عاقلة كالأنبياء والأولياء والملائكة والجن. ولذلك نفي الشرك عن أنفسهم لا ينفعهم، لو قال هذا ليس مشرك، نقول: المسألة ليست بالدعوى، المسألة بالحقائق.

فإن قلتَ: هم جاهلون أنهم مشركون بما يفعلونه.

قلتُ: قد صرَّحَ الفقهاء في "كتب الفقه" في "باب الرِّدَّةِ" أنَّ من تكلم بكلمة الكفر يكفر، وإنْ لم يقصد معناها.

وهــذا دالٌّ علــى أنَّهــم لم يعرفــوا حقيقــة الإســلام، ولا ماهيَّــة التوحيــد، فصــاروا حينئذ كفَّارًا كفرًا أصليًّا.

فـإنَّ الله تعـالى قـد فـرض علـى عبـاده إفـراده بالعبـادة ﴿أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[هـود: ٢]، وإخلاصـها لـه، ﴿وَمَـا أُمِـرُوا إِلاَّ لِيَعْبُـدُوا اللَّهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الـدِّينَ﴾[البينة: ٥]، ومـن نادى الله تعـالى لـيلًا ونهـارًا، وسـرًّا وجهـارًا، وخوفًـا وطمعًـا، ثم نادى معـه غـيره فقـد أشرك في العبادة.

فـإنَّ الـدعاء مـن العبـادة، وقـد سمَّـاهُ الله تعـالى عبـادة في قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ الَّـذِينَ يَسْـتَكْبِرُونَ عَـنْ عِبَـادَتِي سَـيَدْخُلُونَ جَهَـنَّمَ دَاخِـرِينَ﴾[غـافر: ٦٠]، بعـد قولـه ﴿ادْعُـونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠].

يقـول: إن قـالوا نحـن جـاهلون؛ هـؤلاء عبَّـاد القبـور جـاهلون، يقـول الشـيخ الجهـل لا ينفـع هنـا؛ لأن العلمـاء ذكـروا أن مـن الشـرك بالله، ممـا يرتـدُّ بـه العبـد أن يعبـد غـير الله، ولم يـذكروا في ذلـك أن يكـون عالمـا، ولـذلك قـالوا مـن اسـتهزأ؛ ومـن تكلـم بكلمـة الكفـر مـن غـير إكـراه كـأن سـبَّ الله، أو سـبَّ رسـوله، أو اسـتهزأ بشـيء مـن الشـريعة كفـر بـذلك، كمـا قـال -جَـلَّ وعـلا-: ﴿وَلَقَـدْ قَـالُوا كَلِمَـةَ الْكُفْـرِ وَكَفَـرُوا بَعْـدَ إِسْـلَامِهِمْ﴾[التوبـة: ٧٤]، أيْ: إنمـا كفـروا بتلـك الكلمـة، ولـذلك الـذين اسـتهزءوا بالنـبي -عليـه الصـلاة والسـلام- وبأصـحابه كفـروا بتلـك الكلمـة، ﴿لا تَعْتَـذِرُوا قَـدْ كَفَـرْتُمْ بَعْـدَ إِيمَـانِكُمْ﴾[التوبـة: ٦٦]، وأثبـت الله لهـم إيمـانًا ثم أثبـت لهـم كفـرًا بتلـك الكلمـة والاسـتهزاء بالنـبي -عليـه الصـلاة والسلام- وبأصحابه.

فالإنسـان الـذي يـتكلم بكلمـة الكفـر وأرادهـا فإنـه يحكـم بكفـره ولـو كـان لم يقصـد الكفـر، أيْ لا يشـترط في الحكـم علـى الشـخص بالكفـر أن يقصـد الكفـر، لكـن يشـترط أن يكـون عالمـا، فلـو قـال كلمـة كفـر وهـو يجهـل أنهـا كفـر، أو يجهـل أنهـا محرمـة حينئـذٍ يعـذر بجهلـه وهـذا كمـا يقـول العلمـاء في غـير الأشـياء الظـاهرة، هـذا في الأشـياء الخفيَّـة كمـن صـدر منـه شـكٌّ في بعـض قـدرة الله، كـذلك الـذي أمـر أهلـه أن يحرقـوه ظنًّـا منـه بأنـه

إذا أحرق وصار رمادًا، لم يقدر الله على بعثه له، هو ما أنكر قدرة الله لكنه أنكر قدرته على هذا، فشك في بعض قدرة الله فعذره الله؛ لأنه كان جاهلًا.

ولذلك العلماء يقولون: إنَّ الإنسان إذا فعل الكفر جاهلًا بأنه مُحرَّم، لا يشترط أن يجهل بأنه كفر- لا، ولذلك الذين استهزءوا بالنبي -عليه الصلاة والسلام- وبأصحابه هم يعلمون أن هذه الكلمة محرمة، لكن لم يظنوا أنها تبلغ الكفر، فكفرهم الله، والمراد أن يكونوا جاهلين بحرمتها، فضلًا عن جهلهم بكونها تكفرهم.

ولذلك العلماء يقولون: أنَّ فعل الكفر يكون مكفرًا إذا قصده الإنسان، قصد بمعنى قصد الفعل لا أنه قصد الكفر، ما يقصد أن يكون الكفر، وإنما قصد الفعل، بمعنى أنه فعله باختياره من غير إكراه، والشرط الثاني أن يكون عالمًا بأنه مُحَرَّم، ولا يشترط أن يكون عالمًا بأنه كفر، بل يكفي أن يعلم بأنه مُحرَّم.

فإذا تحقق الشرطان حكم بكفره، وهذا يقول العلماء في غير المسائل الظاهرة كالشرك، فإن الشرك يضاد التوحيد، وينافيه، فمن أشرك بالله فإنه يحكم بشركه، ولا يحكم بإسلامه، فإن كان رجلًا ممن لم تبلغه الحجة الرساليَّة فإن هذا من أهل الفترة؛ ففي الدنيا محكوم بأنه من المشركين وفي الآخرة يختبره الله، كما جاء في الحديث في اختبار أهل الفترة فإن الله -عزَّ وجلَّ- يأمرهم بأن يقذفوا أنفسهم في النار، فهذا الاختبار لمن لم تبلغه الحجَّة الرساليَّة، وأما في الدنيا فكُلُّ من يدن بالتوحيد فهو مشرك؛ لأن من ليس موحدًا فهو مشرك، ولا يمكن أن نصف الإنسان الذي هو مشرك بأنه موحد، ونقول هو موحد، أو هو مسلم؛ لأن مسلم كلمة تراد الموحد، لا فرق، هل هناك فرق بين كلمة مسلم وموحد؟ واحدة، المسلم هو الموحد، والموحد هو المسلم؛ لأن المسلم هو المستسلم لله بالتوحيد والمنقاد له بالطاعة، والمتبرِّي من الشرك.

اليوم بعض الناس يسمي عبَّاد القبور؛ يسميهم مسلمين، تقول هم موحدين، يقول لا ما هم موحدين، طيب وأيش الفرق بين المسلم والموحد؟! هذا ما يقوله إلا جاهل،

أيش الفرق؟ يعني هل يمكن أن تسمي عبَّاد القبور موحدين؟! يمتنعون لكن يسمونهم مسلمين، هم فرقوا بين الإسلام وبين التوحيد، هذا جهل كبير جدًّا بمعنى الإسلام أساسًا، ومدلول هذه الكلمة، ولكن نقول هم حكمهم حكم الشرك، كما قال ابن القيِّم، من وقع في الشرك فهو مشركٌ شاء أم أبى، كمن زنا فهو زانٍ شاء أم أبى، يعني إنسان زنا إن كان عالمًا بالزنا أقمنا عليه الحد وإن كان جاهلًا بالزنا بأنه مُحرَّم كأن كان حديث عهد بالإسلام ماذا نقول؟ نقول: لا نعاقبك لجهلك، لكن هل نقول أنت غير زانٍ؟! لا يمكن أن يكون؛ أنت زانٍ؛ لكنك زانٍ غير مُؤاخَذ؛ لأنك جاهل، لكن ما نقول للزاني الذي يجهل أن الزنا مُحرَّم لقرب عهده بالإسلام؛ نقول أنت عفيف، أيش عفيف؟ كيف عفيف وهو زانٍ؟! هو زاني لكن غير معاقب.

كذلك إذا وقع في الشرك جهلًا نقول هو مشرك، لكن من أهل الفترة، ما نقول أنت موحد مسلم، كيف نقول مسلم؟! هذا كما يقول عن الزاني أنت عفيف لأجل رفع العقوبة! رفع العقوبة شيء ورفع الوصف شيء آخر، فنحن لا نرفع عنهم الوصف الذي اتصفوا به، لكن قد ترفع عنهم العقوبة في الآخرة لجهلهم، لا كما يقول بعض الناس اليوم يسوون بين التوحيد وبين الجهل ببعض صفات الله -جلَّ وعلا- هذا خطأ، وهذا القول لم يقل به أحد فيما أعلم من العلماء، وما ثبت أنه يقوله هذا من قبيل الخطأ، أي لم أعلم أحدًا من العلماء السابقين يقول بهذا، بل كل من وقع في الشرك فهو مشرك، بلغته الحُجَّة أو لم تبلغه الحُجَّة؛ الحُجَّة في الدنيا المراد بها؛ لأنها يترتب عليها العقوبة، فنقول بلغته الحُجَّة أم تبلغه هذه لأنها يترتب عليها العقوبة فقط، أما الوصف والحكم فهو ثابت، الأصل أن نحكم على الناس فيما أظهروا في الدنيا، فمن أظهر الإسلام حكمنا عليه، وقد يكون في باطنه منافقًا، وكذلك من أظهر الشرك حكمنا عليه، وقد يكون في باطنه جاهلًا أو مكرهًا.

يعني رجل بين المشركين؛ بين قوم مشركين وهو يفعل فعلهم لكنَّه في حقيقة أمره مكره، عاجز عن السفر، عاجز عن كذا، وهم قالوا إن فعلت غير فعلنا قتلناك فهو خاف على نفسه القتل، ماذا نقول؟ هو في الدنيا نحكم بشركه، لكنه في الباطن مسلم؛ لأنه مكره، نحن ما علينا بالباطن، نحن علينا بما أظهر الإنسان، من أظهر التوحيد حكمنا عليه بالإسلام، ومن أظهر الشرك حكمنا عليه بالشرك.

أما قامت عليه الحُجَّة أم لم تقم الحُجَّة هذا لأجل العقوبة الدنيويَّة والأخرويَّة، الحاكم لا يقيم عليه الحد حتى يقيم عليه الحُجَّة، والله -جَلَّ وعلا- لا يعذبه حتى تقام عليه الحُجَّة، ولذلك ما جاء العذر لأهل الجهل، الله -عزَّ وجلَّ- قال وما كنا حاكمين عليهم بالشرك! لا، قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥]، إذن الذي هو معلَّق ببعثة الرسول ما هو الحكم ولا العذاب؟ العذاب، المراد به العقوبة، أي ما يعاقب الله أحدًا حتى تبلغه الحُجَّة، أي: ليس فيه دليل أنه لا تحكم عليه بالشرك، كيف لا تحكم عليه بالشرك وهو مشرك؟!

لكن هنا الصنعاني يُسمِّي عبَّادَ القبور والأضرحة والمقامات والأولياء؛ يسميهم كفَّارًا أصليين، وهذا كما -ذكر الشيخ عبد اللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ- مما لا يعرف لأحد قبل الصنعاني، حيث يسميهم كفار أصليين.

قال: لأن هؤلاء أساسًا ما دانوا بالإسلام، أي هؤلاء إنما نشأوا على الشرك، فليسوا مسلمين أصلًا، وعلى هذا فيصح أخذ الجزيَّة منهم؛ لأنهم كفَّار أصليين، كاليهود والنصارى والبوذيين وغيرهم، ولا يقام عليه حد الردة، بل يدعون للدخول في الإسلام، وهذا يدل على أنه لا يعذر أحد بالجهل في الشرك، وهو يقول الشرك الحُجَّة فيه مقامة ما يحتاج، فمن نشأ على الشرك منذ أن نشأ على عبَّاد الموتى والاستغاثة بهم،

والاعتقاد فيهم، فهو مشركٌ؛ فهو كافر أصلي كاليهود والنصارى، ما دخل الإسلام أساسًا حتى نخرجه، وهذا مما خالفه فيه أئمة الدعوة، وعامة العلماء على خلاف ذلك، بل عندهم أن من تسمى بالإسلام ووقع في الشرك سواءً أشرك منذ أن نشأ وبلغ أو كان موحدًا ثم طرأ عليه الشرك أنه في حكم المرتدين، وليس في حكم الكفار الأصليين، وذكر الشيخ عبد اللطيف أن هذا مما لا يعرف عن أحد قبل الصنعاني، وهذا يدل على مذهب أئمة الدعوة في هذه المسألة ماذا؟ أخف ولا أشد من الصنعاني؟ أخف من الصنعاني؛ لأنهم قالوا إن هؤلاء مرتدون، أم هو يقول: لا، هؤلاء كفار أصليون، والحُجَّة أساسًا ما نقول: حُجَّة ولا غير حُجَّة، كل من عبد غير الله فهو كافر أصلي، وإنما المشرك من ثبت إسلامه بيقين ثم طرأ عليه الكفر، لكن هم يقولون بأن هؤلاء الذين بلغوا هم حقيقة الإسلام يثبت لهم قبل البلوغ، طيب، لو قال لك قائل: كلام الصنعاني قوي؛ لأن هؤلاء بلغوا على الشرك أليس كذلك؟ بلغوا على ماذا؟ على الشرك، لكن العلماء الذين قالوا لا، هؤلاء ما يحكم إلا إنهم مرتدون، قال هؤلاء أساسًا منذ أن نشأوا؛ الإنسان أساسًا يولد على ماذا؟ فطرة التوحيد، فهؤلاء أساسًا منذ بلوغهم كونهم بين أيش؟ في قرية يدعي أهلها الإسلام، فهم مسلمون بالفطرة، ثم كونهم بلغوا على شرك قومهم لا يعني كونهم أيش؟ كفار أصليين طالما أنهم نشأوا منذ صغرهم على إسلام ولو بالاسم، وهذا الذي عليه عامة العلماء، كما ذكر الشيخ عبد اللطيف لا يعرف عن أحد أنه سمى عبَّاد القبور عبر العصور سمَّاهم كفارًا أصليين.

فالشاهد أن هذا مما يدل على أن مسألة العذر بالجهل وما شابه ذلك؛ لا، هذه مسألة حادثة، الصنعاني يراهم كفارًا أصليين أساسًا، كفار أصليين ما نشأوا على الإسلام أساسًا، ولا نعتبرهم مرتدين، بل هم كفار أصليون، ما دان بالإسلام أصلًا، مع أنهم يعتذرون بماذا؟ بالجهل، قال هذا لا ينفعهم الجهل! طالما أنهم أشركوا؛

خلاص، طالما أنهم تكلموا بكلمة الكفر؛ خلاص انتهى الموضوع، حكمه حكم الشرك.

فنقول نحن نعم، الصحيح أنه مشركون، ولو لم تبلغهم الحُجَّة، لكن هل هم كفار أصليون؟ الصواب: لا.

فإن قلت: فإذا كانوا مشركين وجب جهادهم والسلوك فيهم ما سلك رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في المشركين.

قلتُ: إلى هذا ذهب طائفة من أئمة العلم، فقالوا: يجب أوَّلًا دعاؤهم إلى التوحيد، وإبانة أن ما يعتقدونه ينفع ويضر، لا يغني عنهم من الله شيئًا، وأنَّهم أمثالهم، وأن هذه الاعتقاد منهم فيه شركٌ، لا يتم الإيمان بما جاءت به الرسل، إلا بتركه والتوبة منه، وإفراد التوحيد اعتقادًا وعملًا لله وحده.

وهذا واجبٌ على العلماء، أيْ بيان أنَّ ذلك الاعتقاد الذي تفرَّعت عنه النذور، والنَّحَائر، والطواف بالقبور شرك محرمٌ، وأنَّهُ عين ما كان يفعله المشركون لأصنامهم.

فإذا أبان العلماء ذلك للأئمة والملوك، وجب على الأئمة والملوك بعث دعاة إلى الناس يدعونهم إلى إخلاص التوحيد لله، فمن رجع وأقرَّ حُقِنَ عليه دمه، وماله وذراريه، ومن أصرَّ فقد أباح الله منه ما أباح لرسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من المشركين.

يعني يقول: (**فإن قلت: إن كانوا مشركين وجب جهادهم**)، هم يقولون لا بأس أن نجاهدهم، لكن متى؟ بعد أن نقيم الحُجَّة، النبي -عليه السلام- بعث إلى قومٍ ماذا؟ مشركين، هل قاتلهم ابتداءً؟ ما قاتلهم حتى دعاهم إلى التوحيد، فإذا دعاهم إلى التوحيد ونشره، وقد صبر النبي -عليه الصلاة والسلام- سنين طويلة قبل أن يؤمر بالقتال أساسًا.

فالشيخ يقول: بل ندعوهم، ونبعث الدعاة، ونواصل الملوك، فإذا أقيمت الحُجَّة عليهم، وأصبح لا عذر لهم في الشرك بعد بلوغ الحُجَّة الرساليَّة أيْ: بالنصوص؛ بالكتاب والسنة والدعوة حينئذٍ وجب قتالهم، لكن لا يقاتلون ابتداءً لماذا؟ لأنهم يعاملون كمعاملة المشركين الذين لم تبلغهم الدعوة، فهؤلاء في حكم من لم تبلغهم الدعوة؛ لأنهم كفار أصليون، هكذا يقول، لكن طبعًا لو كانوا قد بلغتهم الدعوة وعلموا دعوة الحق وكفروا مع علمهم، وبلوغ الدعوة لأسماعهم حينئذٍ يجوز ابتداؤهم بالقتال من غير دعوة، كما كان النبي –عليه السلام– يغير على المشركين إذا بلغتهم الدعوة، أغار على بني المصطلق وهم غارون أيْ: في بيوتهم؛ لأن الدعوة قد بلغتهم.

فإن قلتَ: الاستغاثة قد ثبتت في الأحاديث، فإنه قد صح أن العباد يوم القيامة يستغيثون بآدم أبي البشر ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، وينتهون إلى مُحَمَّد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بعد اعتذار كُلِّ واحد من الانبياء، فهذا دليل على أن الاستغاثة بغير الله ليست بمنكر.

قلتُ: هذا تلبيس، فإنَّ الاستغاثة بالمخلوقين الأحياء فيما يقدرون عليه، لا ينكره أحد، وقد قال الله تعالى في قصة موسى مع الإسرائيلي والقبطي ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص: ١٥].

وإنَّما الكلام في استغاثة القبوريين وغيرهم بأوليائهم، وطلبهم منهم أُمُورًا لا يقدر عليها إلا الله تعالى من عافية المرض وغيرها.

بل أعجب من هذا أن القبوريين وغيرهم من الأحياء من أتباع من يعتقدون فيه قد يجعلون له حِصَّةً من الولد إن عاش، ويشترون منه الحمل في بطن أمه ليعيش، ويأتون بمنكراتٍ ما بلغ إليها المشركون الأولون.

ولقد أخبرني بعض من يتولى قبض ما ينذر القبوريون لبعض أهل القبور أنه جاءه إنسانٌ بدراهم، وحلية نسائية، وقال: هذه لسيده فلان –يريد صاحب القبر– نصف مهر ابنتي؛ لأني زوَّجتُهَا، وكنت ملكت نصفها فلانًا –يريد صاحب القبر–!!

وهذا شيء ما بلغ إليه عباد الأصنام. نعم؛ استغاثة العباد يوم القيامة، وطلبهم من الأنبياء إنما يدعون الله تعالى ليفصل بين العباد بالحساب، حتى يريحهم من هول الموقف، وهذا لا شك في جوازه، أعني طلب دعاء الله تعالى من بعض عباده لبعض.

في سقط، في نسختنا زيادة (**وهذه النذور بالأموال وجعل قسط للقبر كما يجعلون شيئا من الزرع يسمونه "تلما" في بعض الجهات اليمينة، وهذا شيء ما بلغ إليه عباد الأصنام**). طبعًا الشيخ الآن يعني يذكر الشبهة التي يستدلون بها وهو ثبوت الاستغاثة في الموقف، أن أهل الموقف والناس يستغيثون بآدم ثم يقول لست لها، يذهبون إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم موسى، ثم إلى عيسى، ثم يقوم النبي -عليه الصلاة والسلام- ويَخِّروا ساجدًا لربه؛ في الحديث المشهور والمتفق عليه، فيستدلون على ذلك جواز الاستغاثة بالموتى، فيقول الشيخ بأن هذا إنما هو في الأحياء الحاضرين، السامعين وأن يستغاث بهم فيما يقدرون عليه، ﴿**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ**﴾ **[القصص: ١٥]**، فقضى؛ فضربه موسى فقضى عليه، فهذه استغاثة، فاستغاث بموسى لما رآه، لم يستغث به في حال غيبته.

كذلك لما كانت هاجر تبحث؛ تذهب إلى الصفا والمروة فسمعت صوتًا أغثْ إن كان عندك غوث، لما سمعت صوتًا فظنته أنه أحد أو ناس فقالت: أغث إن كان عندك غوث، فلا بأس، والعلماء لا يختلفون على جواز أن يستغيث الإنسان بالحي القادر، لكن لا بد تكون الاستغاثة بما هو في مقدور البشر، لكن لو قال: أغثني بهداية قلبي، أو أغثنا بإنزال المطر أيْ: من الأشياء التي لا يفعله إلا الله كان شركًا سواءٌ كان المستغاث به حيًّا حاضرًا أو كان غائبًا؛ لأن كُلَّ سؤال لغير الله مما لا يُدعى إلا الله فهو شرك، سواءً كان المدعو ميْتًا حيًّا، حاضرًا غائبًا لا فرق، وهذا من أعظم أنواع الشرك؛ لأنه يسأله ما لا يقدر عليه إلا الله، وهذه إثبات صفة الله في المخلوق، فهذا

شرك من جهة الأُلُوهيَّة، ومن جهة الأسماء والصفات، ومن جهة الأفعال. وأما دعاء الغائب والميت فهو شركٌ مطلقًا؛ لأن أساسًا لا يدعو أحدٌ غائبًا عنه أو ميْتًا إلا ويعتقد أنه يسمع دعائه، كون الإنسان يدعو رجلًا غائبًا أو ميْتًا بعد أن دفن، ومات وانقطع عمله فإنه لم يدعوه إلا باعتقاد أنه يسمع الصوت، وهذا إثبات صفة الله تبارك وتعالى، بل فقط السماع؛ إثبات السماع والقدرة، وهي صفة الله، الله -جلَّ وعلا- أينما كنت إذا أصابك ضر دعوته رجاء إجابته، فمن دعا مخلوقًا على هذا النحو من الدعاء كان مشركًا؛ الذي يصيبه الكرب والمصيبة ثم يدعو يا عبد القادر، يا فلان؛ حتى لو كان حيًّا غائبًا، هذه صفة دعاء الله -عزَّ وجلَّ-، ما الفرق بين دعاء الله ودعاء؛ الله يسمعك أينما كنت، وهو قادرٌ على أن يغيثك أينما كنت، فمن صرف هذا النوع من الدعاء لغير الله كان مشركًا بالله تبارك وتعالى. وكذلك دعاء الميت من هذا الجنس، والله -جلَّ وعلا- سمى دعاء الميت شركًا، كما قال -جَلَّ وعلا-: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[فاطر: ١٤]، سمَّى الله دعاء الموتى شركًا، وقال المدعوين: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النحل: ٢١]، فدلَّ على أن دعاء الأموات شرك بالله -تبارك وتعالى- وكذلك دعاء الغائب، وكذلك دعاء الحيِّ الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله، ودعاء الميت الغائب شركٌ مطلقًا؛ حتى لو سأله ما يقدر عليه الحي، لو قال للميت يا فلان أعني على حمل هذه الحجر، يا فلان علمني هذه السورة، علمني كذا كان شركًا، فإن دعاء الميت الغائب شركًا مطلقًا، بدلالة النصوص الكتاب والسنة، وكذلك الغائب؛ لأنه قد أثبت فيه صفة الله، ودعاه على النحو الذي لا يُدعى به إلا الله، فلا فرق بين أن يقول الغائب يا فلان علمني هذه المسألة وهو فقيه غائب، لا فرق؛ هذا يجوز لو كان حيًّا، فإن دعاء الموتى والغائبين شركٌ مطلقًا، مع قطع النظر ما الذي دعوهم به، أما دعاء الحي الحاضر فجائز إلا إذا دعاه ما لا يقدر عليه إلا الله.

ولذلك إن هؤلاء الذين يقولون نحن نستغيث، نقول نعم؛ لحديث فيه استغاثة بالأنبياء في حال حضورهم، وسماعهم وقدرتهم أن يدعوا الله، ثم أنهم ما استغاث بهم إلا بدعائهم، ما استغاثة، يعني الطلب منهم الشفاعة عند الله، لم يطلب منهم كشف الكرب، ما قالوا لآدم اكشف كربنا، ونجِّنا مما نحن فيه، ما قالوا ذلك، قالوا ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا، اشفع لنا عند ربك، هم طلبوا أن يشفع لهم عند ربه، معناه أن يدعوا الله، ولذلك لما أجاب النبي -عليه الصلاة والسلام- ما الذي فعل؟ دعا الله، يعني حتى الحديث ليس فيه أنهم طلبوا منه أن يُكشف كربهم، وإنما طلبوا منه الدعاء، وهذا جائز في حال سماع المدعو وحضوره، فليس فيه دلالة أساسًا على ما يزعمون من دعاء الموتى، ولما ذكر أن المشركين اليوم يفعلون في قبورهم أعظم ما كان يفعله المشركون، وهذا كثير؛ أعظم، الله -جَلَّ وعلا- ذكر بأن المشركين إنما يشركون في الرخاء وفي الشدة يوحدون الله ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[العنكبوت: ٦٥]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧]، نسيتم كل من تدعونه وتعبدونه إلا الله، ومشركو هذا الزمان يدعون الله -عزَّ وجلَّ- في الرخاء وفي الشدة يكثرون الدعاء للموتى والغائبين.

وقد ذكر النعمي -رحمه الله- عن أحوال هؤلاء عبَّاد القبور يقول: أنَّ رجلًا أو امرأةً جاءت وقد ابتليت ببلاء؛ جاءت إلى القبر والضريح وتقول لصاحب القبر انظر ماذا فعل الله بي ولم يبقَ إلا حسبك!! أعوذ بالله؛ تقول لم يبقى إلا حسبك، جعلت حسبه وكفايته فوق كفاية الله -جَلَّ وعلا.

نعم؛ استغاثة العباد يوم القيامة، وطلبهم من الأنبياء إنما يدعون الله تعالى ليفصل بين العباد بالحساب، حتى يريحهم من هول الموقف، وهذا لا شك في جوازه، أعني طلب دعاء الله تعالى من بعض عباده لبعض.

بل قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لعمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لما خرج معتمرًا: «لا تنسنا يا أخي من دعائك».

والحديث فيه ضعف.

وأمرنا سبحانه أن ندعو للمؤمنين، وأن نستغفر لهم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾[الحشر: ١٠].

وقد قالت أم سليم -رَضِيَ اللَّهُ عَنْها-: يا رسول الله، خادمك أنس أدع الله له.

وقد كان الصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم- يطلبون الدعاء منه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو حَيٌّ.

وهذا أمرٌ متفقٌ على جوازه، والكلام في طلب القبوريين من الأموات، أو من الأحياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا، ولا ضرًّا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، أن يشفوا مرضاهم، ويَرُدُّوا غائبهم، ويُنَفِّسُوا عن حُبْلَاهم، وأن يسقوا زرعهم، ويُدِرُّوا ضُروعَ مواشيهم، ويحفظوها من العين، ونحو ذلك من المطالب التي لا يقدر عليها أحد إلا الله.

هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾[الأعراف: ١٩٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[الأعراف: ١٩٤].

فكيف يطلب الإنسان من الجماد، أو من حَيٍّ . الجماد خير منه ؛ لأنه لا تكليف عليه؟!

لكنَّ الشيخ هنا لما ذكر أمثلة، هل يريد بذلك بأن دعاء الموتى لا يكون شركًا إلا إذا سألوهم ما لا يقدر عليه إلا الله؟ قد يقول قائل أن هذا مراده، لكن الأظهر لا؛ لأنه ذكر بأن طلب الشفاعة نوع من أنواع الشرك، وطلب القرب نوع من أنواع الشرك، وهو فعل المشركين، وإلا لو كانت المسألة معلقة فقط بأن يُسْأل الميت ما لا يقدر عليه إلا الله فلا فرق بين دعاء الميت والحي، إذا كان الشرك أن تطلب من مخلوقٍ ما لا يقدر عليه إلا الله، إذن صار الحكم معلقًا في فيما تطلبه، وليس معلقًا في المدعو حيًّا كان أو ميِّتًا، لا علاقة به، هذا خلاف الأدلة، خلاف إجماع الأمة.

لكن هنا يذكر؛ لأن غالب سؤال الموتى هو هذا النوع، يعني غالب الذين يأتون الموتى هم يجمعون مع دعاء الميت؛ يجمعون معه أن يسألوهم ما لا يقدر عليه إلا الله؛ لأنهم يعتقدون فيهم، هم زادوا الاعتقاد فيهم على ما كان عليه المشركون؛ المشركون كانوا يعبدونهم طلبًا للشفاعة، ولم يسألوهم انزال المطر، وإنما ظنوهم شفعاء، وهذا فعل المشركين اليوم لكنهم يزيدون عليه أنهم يشركون في الربوبيَّة أيضًا، وهذا كثير، يعتقدون فيهم التأثير، وانظر إلى الرافضة والصوفيَّة؛ يعني الصوفيَّة اليوم وعبَّاد القبور يكتفون بالاعتقاد في الميت أنه يشفع ويضر؟ لا؛ هم وصفوهم بصفات الرب، فالصوفيَّة يعتقدون في أوليائهم ما هو من صفة الله -جَلَّ وعلا- من تدبير الكون، وعلم اللوح والقلم؛ و... و... إلى آخره، إذن زادوا على شركهم بكثير جدًّا.

فالشرك في الربوبيَّة الذي كان لا يقول به المشركون اليوم أصبح شائعًا مقترنًا بشرك الأُلوهيَّة، والرافضة اليوم ماذا يعتقدون في آل البيت؟ ما يعتقدونه في الله -جَلَّ وعلا- يحاسبون، ويعلمون، ويتصرفون في إدارة الكون، هذا زيادة على شرك الأولين.

فقول الشيخ هنا ليس على سبيل التقييد، وإنما على سبيل أن هذا هو الواقع، هكذا يفعلون، يعني يزيدون على دعاء الموتى أنهم يطلبون منهم ما لا يقدر عليه إلا الله.

وهذا عين ما فعله المشركون في عبادة الأصنام، وهذه هي بعينها العبادة.

وهذه النذور بالأموال وجعل قسط للقبر كما يجعلون شيئا من الزرع يسمونه "تلما" في بعض الجهات اليمينة للميت.

وكذلك يجعلون لهم نصيبًا من أنعامهم، وهو بعينه الذي كان يفعله المشركون الذي حكى الله تعالى ذلك عنهم، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا...﴾[الأنعام: ١٣٦] الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾[النحل: ٥٦].

أي هذا ما يفعله القبوريون اليوم، يجعلون شيئًا من أموالهم لموتى، والغائبين وهو عين ما يفعله المشركون لأصنامهم، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا...﴾[الأنعام: ١٣٦] الآية، أي جعلوا نصيبًا من أموالهم لشركائهم ومعبوداتهم، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾[النحل: ٥٦]، يجعلون للموتى والغائبين والأصنام نصيبًا مما رزقناهم وهو عين فعل المشركين.

فهؤلاء القبوريون والمعتقدون في جهال الأحياء وضلالهم سلكوا مسالك المشركين حذو القذة بالقذة، فاعتقدوا فيهم ما لا يجوز أن يعتقد إلا في الله، وجعلوا لهم جزء من المال وقصدوا قبورهم من ديارهم البعيدة للزيارة، وطافوا حول قبورهم وقاموا خاضعين عند قبورهم وهتفوا بهم عند الشدائد، ونحروا تقربا إليهم، وهذه هي أنواع العبادات التي عرفناك.

ولا أدري هل فيهم من يسجد لهم؟ لا أستبعد أن فيهم من يفعل ذلك.

بل أخبرني من أثق به أنه رأى من يسجد على عتبة باب مشهد الولي الذي يقصده تعظيمًا له وعبادة، ويقسمون بأسمائهم.

وهذا كثير سجود العامة، والصور هذه موجودة عند الرافضة وغيرهم يسجدون لقبور من يعظمونه ويعبدونه.

ويقسمون بأسمائهم بل إذا حلف من عليه حق باسم الله تعالى لم يقبلوا منه، فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه. وهكذا كان عباد الأصنام ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[الزمر: ٤٥]، وفي الحديث الصحيح: «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت». وسمع رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رجلا يحلف باللات فأمره أن يقول: «لا إله إلا الله».

وهذا يدل على أنه ارتد بالحلف بالصنم، فأمره أن يجدد إسلامهن فإنه قد كفر بذلك، كما قررناه في سبل السلام شرح بلوغ المرام وفي منحة الغفار.

طبعًا يقول عن هذا الذي حلف باللات كفر بذلك، ووجه هذا: أنه حلف بمعبود، بمعنى أنه حلف بمعبودٍ يُعبد، فلا يحلف به إلا وهو يُعظمه، بخلاف لو حلف بأبيه وأمه يكون التعظيم تعظيم الأبوة، وتعظيم الشرف، وتعظيم الأمانة، فهذا يكون شركًا أصغر، أما لو حلف قال: وصنم كذا، وصنم بوذا، هذا معناه أنه يُعظم هذه المعبودات، هذا شرك أكبر، هذا وجه قوله "إنه ارتد" ولذلك النبي -عليه الصلاة والسلام- أمره أن يقول: لا إله إلا الله، وقال بعض العلماء أن هذا إذا كان خرج لفظًا لا يُكْفَر، وهذا لظاهر الحديث أنه قال من حلف وقال واللات أيْ: خطاءً أمره بأن يقول لا إله إلا الله على سبيل التوحيد، يعني أن يرفع تلك السيئة بهذا التوحيد، هذا إذا وقع الحلف يعني عفوًا، أما إذا قصد الحلف بمعبود فلا شك أن هذا شرك.

فإن قلت: لا سواء! لأن هؤلاء قد قالوا «لا إله إلا الله» وقد قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها». وقال لأسامة بن زيد: «لم قتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟». وهؤلاء يصلون ويصومون ويزكون ويحجون بخلاف المشركين!

هذه الشبهة كثيرًا ما تطرح؛ وهي قضية: أنهم يقولون بأن لا إله إلا الله تعصم دم الإنسان، وأن هؤلاء الذين يقعون في الشرك اليوم من عباد القبور وغيرهم أن هؤلاء يصلون ويصومون ويحجون؛ فكيف تجعلون هؤلاء كعباد الأصنام الذين كفروا بنبوة النبي -عليه الصلاة والسلام- وعادوه وعبدوا الأصنام؟ هذه أيضًا من أكبر الشبه التي يتعلقون بها.

قلتُ: قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إلا بحقها» وحقها إفراد الله بالإلهية والعبودِيَّةِ لله تعالى.

والقبوريون لم يفردوا هذه العبادة، فلم تنفعهم كلمة الشهادة، فإنها لا تنفع إلا مع التزام معناها، ولم ينفع اليهود قولها لإنكارهم بعض الأنبياء.

وكـذلك مَـنْ جعـل غـير مـن أرسـله الله نبيًّـا، لم تنفعـه كلمـة الشـهادة؛ أَلا تـرى أن بـني حنيفـة كـانوا يشـهدون أنْ لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمـدًا رسـول الله ويصـلون ولكـن قـالوا: إنَّ مسيلمة نـبي، فقـاتلهم الصـحابة وَسَـبَوْهُم. فكيـف بمـن يجعـل لِلْـوَلِيّ خاصـية الإلهية ويناديه لِلمُهِمَّاتِ؟

وهـذا أمـير المـؤمنين علـي بـن أبي طالـب -ﷺ- حَـرَّق أصـحاب عبـد الله ابـن سـبأ، وقـد كـانوا يقولـون: لا إلـه إلا الله، مُحَمَّد رسـول الله، ولكـنهم غلـوا في علـي -ﷺ- واعتقدوا فيه ما اعتقده القبوريون وأشباههم.

بـل عـاقبهم عقوبـة لم يعاقِـب بهـا أحـدًا مـن العصـاة، فإنـه حفـر لهـم الحفـائر وأَجَّـجَ لهم نارًا وألقاهم فيها وقال:

لمـا رأيـت الأمـر أمـر منكـرًا　　　أججـت ناري ودعـوت قنـبرًا

وقال الشاعر في عصره:

لـترم بي المنيـة حيـث شـاءت　　　إذا لم تـرم بي في الحفـرتين
إذا مـا أججـوا فـيهنَّ نارًا　　　رأيـت المـوت نقـدًا غـير ديـنِ

والقصة في فتح الباري وغيره من كتب الحديث والسِّير.

قـد وقـع إجمـاع الأمـة علـى أن مـن أنكـر البعـث كفـر وقُتِـلَ؛ ولـو قـال لا إلـه إلا الله، فكيف بمن جعل لله ندا؟!

الجواب هنا جوابه كجواب شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب -رحمه الله- في كشف الشبهات، بأن لا إله إلا الله تنفع بمجرد لفظها، ولكنها تنفع إذا أدى الإنسان حقوقها ولم يقع في نواقضها، وقد أجمع المسلمون على أن من قال لا إله إلا الله ثم أنكر شيئًا من الدين بأنه كافر، ولو أنكر ركعةً من صلاة الفجر فهو كافرٌ مرتد، ولو قال لا إله إلا الله. واتفق الصحابة -رضي الله عنهم- على قتال الخوارج وهم يقولون لا إله إلا الله، وأجمع الصحابة على قتال قوم مسيلمة

وهم يقولون لا إله إلا الله والسبب أنهم ادَّعَوْا في مسيلمة النبوة فكيف بمن جعل مخلوقًا مرتبة الألُوهية وأعطاه مرتبة الألُوهية؟

فالعلماء مجمعون من كُلِّ مذهب على أن من قال لا إله إلا الله ثم أتى أو جحد شيئًا من الدين أو كذَّب بنبوة نبيٍّ واحد، أو جحد فريضة أو جزءًا منها بأنه كافر مرتد ولا تنفعه لا إله إلا الله. فالعلماء مجمعون والأدلة دلت على أن لا إله إلا الله إنما تعصم إذا قالها الإنسان وأدى حقها، كما قال النبي –عليه الصلاة والسلام– في الحديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا قالوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»، ومن حق لا إله إلا الله: الإتيان بشروطها وأركانها، والامتناع عن موانعها.

وهذا علي –ﷺ– قاتل هؤلاء وحرَّقهم بالنار لما ادَّعوا فيه الألُوهية، حرَّقهم مع أنهم يقولون لا إله إلا الله، فهؤلاء ما أنكروا قول لا إله إلا الله، فمن أنكر البعث كفر ولو أقرَّ بالوحدانية لله، ومن أنكر القدر كفر وهكذا، بل لو أنكر فريضة من فرائض الله التي أجمع المسلمون عليها أنه كافر مرتد ولا تنفعه كلمة لا إله إلا الله لما أتى ناقضًا من نواقضها أو ترك شرطًا من شروطها.

فهذه من أكبر الشبه التي يتعلقون بها في كل زمان؛ حتى في هذه الأزمنة، والآن إذا حكمت بشرك القبوريين ماذا يقولون؟ لا؛ هؤلاء أهل لا إله إلا الله، هؤلاء يصلون، هي هذه شبهتهم العظمى أساسًا، هذه شبهتهم العظمى التي يدندنون حولها، مع أنك لو قلت لواحد منهم طيب رجل آمن بالدين كله ثم جحد صلاة الفجر؛ قال الصلوات أربع، لقال لك هذا القبوري قال لك هذا كافر، جحد الزكاة قال كافر، طيب كيف إذا كان جحد ما نفعته لا إله إلا الله، أين لا إله إلا الله؟ لما لم تنفعه؛ تعصم دمه، هذا أمرٌ معلومٌ أساسًا.

فإن قلت: قد أنكر رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على أسامة قتله لمن قال لا إله إلا الله كما هو معروف في كتب الحديث والسِّير.

قلتُ: لا شك أن من قال: «لا إله إلا الله» من الكفار حقن دمه وماله حتى يتبين منه ما يخالف ما قاله، ولذا أنزل الله في قصة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا...﴾[النساء: ٩٤] الآية، فأمرهم الله تعالى بالتثبت في شأن من قال كلمة التوحيد، فإن تبين التزامه لمعناها كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم. وإن تبين خلافه، لم يحقن دمه، وماله بمجرد التلفظ.

وهكذا كل من أظهر التوحيد وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يخالف ذلك، ولم تنفعه هذه الكلمة بمجردها.

ولذلك لم تنفع اليهود، ولا نفعت الخوارج مع ما انظم إليها من العبادة التي يحتقر الصحابة -ﷺ- عبادتهم إلى جنبها، بل أمر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بقتلهم، وقال: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»، وذلك لِمَا خالفوا بعض الشريعة وكانوا شر القتلى تحت أديم السماء، كما ثبتت به الأحاديث. فثبت أن مجرد كلمة التوحيد غير مانع من ثبوت شرك من قالها لارتكاب ما يخالفها من عبادة غير الله.

النبي -عليه الصلاة والسلام- عنَّف على أسامة -ﷺ- قتل من قال لا إله إلا الله؛ لأن هذا الرجل كان ممتنعًا عنها، هذا الرجل كان ممتنعًا عنها، يمتنع أن يشهد لله الوحدانية؛ لأنه كان مشركًا، فلما قال هذه الكلمة كان لها دلالة على ترك دينه السابق، وترك اعتقاده السابق، كان ممتنعًا؛ فلما قالها وجب الكف عنه، فإن تبين بعدما قالها ما ينقضها وجب قتله حينئذ، فهذا الرجل لم يظهر منه بعد قول لا إله إلا الله ما يدل على كفره، معنى أنه قال لا إله إلا الله ثم كفَّ عنه أسامة ثم قاتل الصحابة لحكمنا بكفره، إذ قاتل المسلمين مع المشركين، لكنه قال لا إله إلا الله ثم لم يظهر منه بعد ذلك ما هو من قبيل الردة، ما يناقضها فوجب الكف عنه، فهنا كُفَّ عنه لماذا؟ لأنه قال لا إله إلا الله.

ولـذلك الخـوارج يُقَـاتلون، طيـب؛ لـو قـال خـارجي في القتـال لا إلـه إلا الله مـا ينفعـه ذلـك، لمـاذا؟ لأنـه كـان يقـر بهـا أساسًـا قبـل القتـال، يقـر بهـا وكـل هـؤلاء، وقـوم مسـيلمة هـؤلاءِ لم يكـف عـنهم ولـو قـالوا لا إلـه إلا الله، ولـذلك لـو جـاء إنسـان وجحـد البعـث وقـال: لا بعـث، كيـف يتـوب؟ كيـف يُعلـم أنـه تـرك مـا ارتـد بـه؟ هـل لـو قـال لا إلـه إلا الله وخـلاص كفتنـا عنـك؟ لا؛ هنـا لا تقبـل منـه لا إلـه إلا الله حـتى يقـر بالبعـث، ولـذلك هـؤلاء المشـركون لمـا كـانوا ممتنعـين عـن هـذه الكلمـة كانـت هـذه الكلمـة دلالـة علـى تـرك معتقـدهم السـابق وانتقـالهم منـه إلى الإسـلام؛ لأنهـم كـانوا ممتنعـين منهـا، أمـا لـو كـان الإنسـان يقـر بهـا لكنـه كفـر بجحـد شـيء مـن الشـريعة كجحـد البعـث، فإنـه لـو قالهـا مـا نفعتـه، لـو جحـد الصـلاة لـو قالهـا مـا نفعتـه، بـل نأمـره بفعـل الصـلاة وباعتقـاد وجوبهـا، وهـذا معلـوم. فـالنبي -عليـه الصـلاة والسـلام- عنَّـفَ أسـامه؛ لأن الرجـل هـذا قـد ظهـر منـه مـا يـنقض اعتقـاده السـابق وهـو الشـرك، ولم يظهـر بعـد ذلـك مـا يبـيح دمـه، فعنَّفـه؛ لـذلك كـل مـن أظهـر هـذه الكلمـة وكـان ملتزمًـا بشـروطها لم يظهـر منـه نواقضـها وجـب الكـف عنـه، أمـا مـن ظهـر منـه كفـرٌ وردة ونقـضٌ لـلا إلـه إلا الله فإنـه لـو قالهـا وكررهـا مـا نفعته.

فـإن قلـت: القبوريـون وغـيرهم مـن الـذين يعتقـدون في فسـقة النـاس وجهـالهم مـن الأحيـاء يقولـون نحـن لا نعبـد هـؤلاء ولا نعبـد إلا الله وحـده ولا نصـلي لهـم ولا نصـوم ولا نحج.

قلـتُ: هـذا جهـل بمعـنى العبـادة، فإنهـا ليسـت منحصـرة في مـا ذكـرتَ، بـل رأسـها وأساسـها الاعتقـاد، وقـد حصـل في قلـوبهم ذلكـج، بـل يسـمونه معتقـدًا، ويضـيفون لـه مـا سمعتـه ممـا تفـرع عـن الاعتقـاد مـن دعـائهم ونـدائهم والتوسـل بهـم والاسـتغاثة والاستعانة والحلف والنذر وغير ذلك.

وقـد ذكـر العلمـاء أن مـن تـزيَّا بـزي الكفـار صـار كـافرًا، ومـن تكلـم بكلمـة الكفـر صار كافرًا، فكيف بمن بلغ هذه الرتبة اعتقادا وقولًا وفعلًا؟

يقول: (**القبوريون والذين يعتقدون في فسقة الناس وجهالهم من الأحياء يقولون نحن لا نعبد هؤلاء**) أي لا نعبد الأولياء، فيأتيك الرد: أنا لا أعبد الحسين ولا العباس، ويجعل نذره وذبحه أنه ليس عبادة، وهكذا كل القبوريين يقولون لا نعبد هؤلاء، هذا لأنهم يجهلون معنى العبادة، وإلا ما معنى النذر والذبح والهتاف بالاسم والتبرك والتمسح والطواف؟ هذا هو الذي كان يفعله المشركون مع آلهتهم وأصنامهم في الجاهلية، وهو الذي سمَّاه الله عبادة لهم، سمَّاه الله عبادة، ولذلك هؤلاء أساسًا؛ عبادتهم هذه هو اعتقاد، تفرع عن اعتقادهم بأنهم شفعاء وإلا لو لم يعتقدوا فيهم نفع ولا ضر ما عبدوا، لو لم يعتقد أن عبادة الولي تنفع ما عبده، نعم قد لا يعتقد في ذاته أنه ينفع، لكن يعتقد أن عبادتهم مما تنفعه عند الله، ولذلك اعتقدوا فيهم الشفاعة، فهم لو اعتقدوا بأن دعاء الميت والسؤال به لا تنفع أساسًا ولا فائدة منها ما عبدوهم، وهذا معنى قول الشيخ (**بل رأسها وأساسها الاعتقاد**)؛ هؤلاء اعتقدوا في عبادتهم والذبح لهم نفعًا، ما هو النفع؟ أن يشفعوا لهم عند الله، أن يشفعوا لهم، ولا يشترط أن يعتقدوا فيهم أنهم يضرون وينفعون بذاتهم، هذا ما اعتقده المشركون، وإنما عبدوهم على أنهم شفعاء، وهذا هو النفع الذي يريدونه؛ النفع الذي يريدونه أن يشفع لهم هؤلاء المعبودون.

فنقول أساسًا هذا الاستغاثة وهذا الذبح وهذا النذر الذي يفعل المقبور هو فرع عن اعتقاده فيه أنه شفيع، وأن عبادته والتقرب إليه بهذه القربات التي خصها الله بذاته ولم يجعلها لأحد من خلقه لما اعتقدوا أن هذه تنفعهم، وتقربهم إلى الله، وهذا هو عين فعل المشركين.

وقوله: (**من تزيَّا بزي الكفار صار كافرًا**)، إذا كان الزي شعارًا له، شعارًا على دينهم الباطل، يعني كأن لبس اللباس الديني الذي هو خاصٌّ بالنصارى، وهو يعلم أنه لباس ديني، فهذه رضا، وهذا عدم كفر بالطاغوت، فلو جاء إنسان ولبس لباسهم الصليبي أو لبس لبس القساوسة اختيارًا، يتزيا ويتشبه بهم، وهذا البس شعارٌ على دينهم الكافر أو لبس لبس رهبان اليهود أو لبس عباد الأصنام كالبوذيين أي اللباس الخاص بعبادتهم، ما هو اللباس الخاص في لباسهم، اللباس نوعان:

✓ **النـوع الأول: لبـاس لباسـهم العـادي**، فهـذا محرم التشـبه بهـم في لباسـهم، مـا لم يكـن؛ إذا كـان اللبـاس خاصًّا بهـم، قـد اعتـادوا علـى لبـاس طاقيـة مـثلًا معينـة أو شـيء معـين خـاص بهـم، لـيس علـى اعتقـاد ديـني لكـن هـذا لبـاس شـعار لهـم؛ هـذا يكـون محرمًا.

✓ **والنـوع الثـاني: اللبـاس المختـص بـدينهم**، أي الـذي لبسـوه، المتعلـق بـدينهم وعقيـدتهم، فهنـا لـو لـبس الإنسـان هـذا اللبـاس لكـان مشـركًا، لـو لـبس مـثلًا لبـاس يلبســه عليــه الصــلبان لبســه هــذا صــار كــافرًا بــذلك؛ لأن هــذا ينــاقض الكفــر بالطـاغوت، الكفـر بالطـاغوت هـو الـبراءة والمجانبـة، فهـذا إظهـار الرضـا بمـا هـم عليـه، حتى لو فعله لدنيا.

كـذلك مـن تكلـم كلمـة الكفـر صـار كـافرًا، إذا تكلـم باختيـاره كـأن سـبَّ الله أو سـبَّ رسـوله أو أظهـر النصـرانية حـتى يكسـب مـالًا، يعـني أنـاس مـثلًا يوزعـون أمـوال علـى النصـارى فجـاء وقـال أنا نصـراني حـتى يأخـذ المـال، وأخـذ المـال وذهـب كفـر بقولـه أنا نصـراني؛ لأن هـذا قـال كلمـة الكفـر أساسًـا، فهـذا مـراد الشـيخ، لـيس المـراد أن مـن تشـبه بالكفـار في لباسـهم صـار مشـركًا، المـراد بـه اللبـاس الـديني، نعـم؛ مـع أن هـؤلاء بإجمـاع العلمـاء يكفـرون وهـم لم يعتقـدوا في قلـوبهم شـيئًا، وإنمـا شـاركوهم في اللبـاس أو قـالوا كلمـتهم الـتي هـي كلمـة دينيـة عنـدهم تـدل علـى اعتقـاد، فهـذا فيـه إظهـار الرضـا بمـا هـم عليه، وهذا يخالف ما أُمِرنا به من البراءة منهم ومن اعتقاداتهم.

فإن قلت: هذه النذور والنحائر ما حكمها؟

قلـتُ: قـد عَلِـمَ كُـلُّ عاقـلٍ أنَّ الأمـوال عزيـزة عنـد أهلهـا يسـعون في جمعهـا لـو بارتكـاب كـل معصـية، وبقطـع الفيـافي مـن أدنى الأرض والقاصـي، ولا يبـذل أحـدٌ مـن مالـه شـيئا إلا معتقـدًا لجلـب نفـع أكثـر منهـا أو دفـع ضـرر، فالنـاذر للقـبر مـا أخـرج مالـه إلا لـذلك، وهـذا اعتقـاد باطـل، ولـو عـرف النـاذر بطـلان مـا أراده مـا أخـرج درهمـا، فـإن الأمـوال عزيـزة عنـد أهلهـا، قـال تعـالى: ﴿وَلَا يَسْـأَلْكُمْ أَمْـوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾[محمد: ٣٦-٣٧].

فالواجب تعريف من أخرج النذر بأنه إضاعة لماله، وأنه لا ينفعه ما يخرجه ولا يدفع عنه ضررًا، وقد قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إن النذر لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل» ويجب رده إليه.

وأما القابض للنذر فإنه حرام عليه قبضه؛ لأنه أكل لمال الناذر بالباطل لا في مقابلة شيء، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[البقرة: ١٨٨]؛ ولأنه تقرير للناذر على شركه وقبح اعتقاده ورضاه بذلك، ولا يخفى حكم الراضي بالشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾ [النساء: ٤٨] الآية، فهو مثل حلوان الكاهن ومهر البغي؛ ولأنه تدليس على الناذر وإيهام له أن الولي ينفعه ويضره. فأيُّ تقرير لمنكر أعظم من قبض النذر على الميت؟ وأيُّ تدليس أعظم؟ وأيُّ رضا بالمعصية العظمى أبلغ من هذا؟ وأيُّ تصيير لِلْمُنكر معروفًا أعجب من هذا؟ وما كانت النذور للأصنام والأوثان إلا على هذه الأسلوب، يعتقد الناذر جلب النفع في الصنم ودفع الضرر، فينذر له جزءًا من ماله أو يقاسمه في غلات أطيانه ويأتي به إلى سدنة الأصنام فيقبضونه منه ويوهمونه حقيقة عقيدته، وكذلك يأتي بنحيرته فينحرها بباب بيت لصنم، وهذه الأفعال هي التي بعث الله الرسل لإزالتها وإحراقها وإتلافها والنهي عنها.

هو يُقر بأن هذه النذور هي في الحقيقة عبادةٌ، وأنها فرع من الاعتقاد في الميت؛ لأن هؤلاء لو لم يعتقدوا فيه الانتفاع أو لم يعتقدوا الانتفاع بالنذر للميت لما بذلوه؛ المال عزيز، فكونه بذل هذا المال ونذره للميت، لذلك الولي وللجنّ وللغائب ونحو ذلك إنما اعتقد أن هذا النذر ينفعه وإلا فلا ينفق الإنسان ماله من غير مردود، الإنسان إنما ينفق ماله لما يرجوه من العِوض، وهكذا المؤمن يتصدق في سبيل الله لما يرجوه من عوض الله -تبارك وتعالى- يوم القيامة، ومن التقرب إلى الله -عزَّ وجلَّ- بما يحبه، فالإنسان يفعل ذلك حتى ينال ما يحبه كالتقرب إلى الله -عزَّ وجلَّ- ورضا الله -سبحانه وتعالى- وثواب الله -تبارك وتعالى- هذا هو الأصل، وإلا لو كان هذا الناذر يقول: لا، هذا النذر ما ينفع ولا شيء، نقول هذا أضاع المال، ولا هذا يفعله عاقل إنما يفعله المجنون. فهؤلاء أساسًا ما نذروا إلا اعتقادهم أنهم ينتفعون بهذا النذر للميت، وهذا هو

الشرك، وهكذا كان يفعل المشركون، وقوله: **(وأما الذي يقبض النذر)**، يعني لو جاء إنسان إلى قبر من القبور وهناك صندوق إن كان هذا الرجل سادنًا للقبر، سادنًا أي من سدن، ممن يعتنون بالقبر، ويزينونه للعباد فهذا الشرك والكفر والردة عن دين الله –تبارك وتعالى؛ لأن هذا فيه تزين الشرك للناس والإقرار عليه، وتمكينهم منه، وتهيئة أجوائه، هذا لا شك أنه مرتد كافر مشرك، لكن لو كان هناك أناس يعتقدون بطلان هؤلاء ويأتي هؤلاء الذين ينذرون فيضعون في صندوق فيأتي هذا ويأخذ من الصندوق ويمشي دون أن يقرهم على ما هم عليه، ولا أن يعينهم على ذلك، وإنما يأخذ نذور وينتفع بها، هذا لا شك أنه محرمٌ، وإنما يجب على السلطان أن يهدم هذه القبور، وكل ما وجده من النذور صرفه في مصالح المسلمين.

أما الذبائح التي يذبحونها فهذه ميتة، الذبائح التي يذبحونها تقربًا للميت فهذه ميتة؛ لأنها مما أهل بها لغير الله، ولا يجوز الانتفاع به بحال، أما الأموال لا؛ ولذلك أنفق المسلمون ما كان عند الأصنام والمشركين من النذور؛ أنفقوها في سبيل الله، أنفقوها على ما فيه خير، فأخذ هذه الأموال لإنفاقها في الخير لا بأس به، لكن أن يأتي إنسان ويأخذها لينتفع بها ويسكت عن إنكار المنكر إن كان أظهر الرضا بما هم عليه وهيأ لهم ذلك أو قال لهم بأحقية فعلهم فهذا مشرك مثلهم.

فإن قلتَ: إن الناذر قد يدرك النفع ودفع الضرر بسبب إخراجه للنذر وبذله!

قلتُ: كذلك الأصنام، قد يدرك منها ما هو أبلغ من هذا، وهو الخطاب من جوفها والإخبار ببعض ما يكتمه الإنسان، فإن كان هذا دليلًا على حقية القبور وصحة الاعتقاد فيها فليكن دليلًا على حَقِّيَّةِ الأصنام. وهذا هدمٌ للإسلام وتشييدٌ لأركان الأصنام.

هو الآن ماذا يقول؟ يقول هؤلاء يقولون: نحن نذرنا لهؤلاء الأولياء وتحقق لنا تحقق مرادنا. يأتي الإنسان فينذر لأجل شفاء مريضه فيشفى مريضه، ويأتي لينذر لأجل الزواج من امرأة مثلًا فيتزوجها ويتهيأ له الأسباب، يأتي لينذر ليدفع عنه مكروهًا فيُدفع له المكروه، فيدعون ما يقدروه الله –عزَّ وجلَّ–، ما يقدره الله –تبارك وتعالى– إما ابتلاءً وإما موافقةً للقدر، يدعون ذلك

علامة على أنه انتفعوا بهذا النذر، قالوا انتفعنا؛ حصل، فلان نذر وتحقق مراده، وفلان نذر وتحقق مراده، فجعلوا ذلك أمارة ودلالة على صحة فعلهم، فقال الشيخ حتى المشركون أنفسهم أساسًا عندما كانوا ينذرون كانوا يحصلون أبلغ من هذا، كانوا يُخاطَبون من أجواف الأصنام، ويُجابُون على سؤْلهم، ويأتون بالنزاع عند الصنم فيجيبهم الصنم بما فيه من الجنّ والشياطين التي تزين للناس، فضلًا عما يقع لهم من هذا.

ولذلك كون الإنسان ينذر لقبر، ينذر لميت، ينذر لولي كمن ينذر للعباس، للحسين وللبدوي ونحو ذلك، ثم يقول والله نذرت في كذا وتحقق مرادي، نقول هذا قد يكون ابتلاءً من الله لينظر توحيدك، وقد يوافق القدر لكن هذا الفعل شرك بالله -تبارك وتعالى-؛ لأن النذر عبادة، والله -جلَّ وعلا- قد يبتلي العباد لينظر كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٤٢-٤٤]، لما كفروا فتح الله عليهم خزائن السماوات عليهم حتى اعتقدوا بصحة ما هم فيه، قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[الأنعام: ٤٤]، ثم جاءهم العذاب بغتة، فالله -جلَّ وعلا- قد -سبحانه وتعالى-؛ قد يمهل هؤلاء حتى يوقعهم في شر أعمالهم.

فكونه قد أدرك نفعًا أو ضرًّا؛ طبعًا هذا ليس بصحيح بمعنى أنه لا يدرك أحد نفعًا؛ إذا كان من نذر لله لا يدرك النفع، النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «النذر لا يأتي بخير»، وقال: «النذر لا يقدم شيئًا ولا يؤخره وإنما يوافق القدر»، إذا كان النذر لله لا يقدم شيء ولا يؤخره، وهو نذر لله تعبدًا لله، فكيف بمن نذر لغير الله؟! وإنما هذا قد يوافق قدر؛ قد يقدر الله أن يشفى، لكن ليس أن النذر هو سببه، ولو فرضنا أنه فعل ذلك لما نذر من أجل الابتلاء فهذا أعظم وأعظم والعياذ بالله.

والتحقيق أن لإبليس وجنوده من الجن والإنس أعظم العناية في إضلال العباد وقد مكن الله إبليس من الدخول في الأبدان والوسوسة في الصدور والتقام القلب بخرطومه.

وكذلك يدخل أجواف الأصنام ويلقي الكلام في أسماع الأقوام.

ومثله يصنعه في أهل عقائد القبوريين، فإن الله تعالى قد أذن له أن يجلب على بني آدم بخيله ورجله، وأن يشاركهم في الأموال والأولاد.

وثبت في الأحاديث «أن الشيطان يسترق السمع بالأمر الذي يحدثه الله، فيلقيه إلى الكهان، وهم الذين يخبرون بالمغيبات ويزيدون فيما يلقيه الشيطان من عند أنفسهم مائة كذبة».

ويقصد شياطين الجن شياطين الإنس من سدنة القبور وغيرهم بذلك البهتان والزور، فيقولون للقبوريين: إن الولي فعل وفعل، يرغبونهم فيه ويحذرونهم منه، وترى العامة ملوك الأقطار وولاة الأمصار مقرِّرين لذلك، ويولون العمال لقبض النذور وقد يتولاها من يحسنون فيه الظن من عالم وقاض أو مفتٍ أو شيخ صوفي، فيتم التدليس لإبليس وتقر عينه بهذا التلبيس.

وهذا كثير، الشياطين كثيرة، وشيخ الإسلام ذكر في كثيرًا من رسائله كالفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن، وذكر في مواضع من كتبه كيف كانت الجن والشياطين تخضع هؤلاء الجهال وتكلمهم من القبور، وتسبح الحصى، ولاية الفساق حتى يعتقد الناس فيهم الولاية، وهذا كثير؛ لأن الشيطان ليس له وظيفة إلا إضلال بني آدم، وأعظم ما يريد أن يوقعهم في الشرك.

فإن قلت هذا أمر عم البلاد واجتمعت عليه سكان الأغوار والأنجاد وطبق الأرض شرقا وغربا ويمنا وشاما وجنوبا وشمالًا، بحيث لا تجد بلدة من بلاد الإسلام ولا قرية من قراه إلا وفيها قبور ومشاهد وأحياء يعتقدون فيها ويعظمونها وينذرون لها ويهتفون بأسمائها ويحلفون بها، ويطوفون بفناء القبر، ويسرجونه ويلقون عليه

الأوراد والرياحين ويلبسونها الثياب ويصنعون كل أمر يقدرون عليه من العبادة لها وما في معناها من التعظيم والخضوع والخشوع والتذلل والافتقار إليها.

بل هذه مساجد المسلمين غالبها لا يخلوا عن قبر أو قريب منه أو مشهد يقصده المصلون في أوقات الصلاة يصنعون فيه ما ذكر أو بعض ما ذكر.

ولا يسع عقل عاقل أن هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة والقباحة ويسكت عليه علماء الإسلام الذين ثبتت لهم الوطأة في جميع جهات الدنيا.

أول شيء هذا الكلام منه يدل على انتشار الشرك في عهدهم وأنه عمَّ البلاد شمالها وجنوبها، وشرقها وغربها وهذا يدل على أن حالة المسلمين في ذلك الوقت كانت سيئة جدًّا، وهذا الذي ذكره الإمام مُحَمَّد ابن عبد الوهاب –رحمه الله– وذكره المؤرخون في ذلك الوقت بأن الشرك قد عم وطم، وذكر الصنعاني –رحمه الله– يقول هذا الكلام يوافق ما ذكره شيخ الإسلام مُحَمَّد ابن عبد الوهاب –رحمه الله تعالى–.

وهذا أيضًا حجة يدلي بها المشركون يقولون: لا يزال المسلمون على هذه القبور، وما تخلو بلد من بلاد الله إلا فيه قبور وأضرحة ومقامات ومشاهد ينْتابها الناس، ولو كان هذا شركًا لما أقره المسلمون عبر هذه الدهور! فيدَّعون وجود هذه الأمور وانتشارها من الأدلة على صحتها.

قلتُ: إن أردت الإنصاف وتركت متابعة الأسلاف وعرفت أن الحق ما قام عليه الدليل لا ما اتفق عليه العوالم جيلًا بعد جيل، وقبيلًا بعد قبيل، فاعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها ونسعى في هدم منارها صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد الآباء بلا دليل ومتابعتهم لهم من غير فرق بين دبير وقبيل، ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل قريته وأصحاب جلدته يلقنونه في الطفولية أن يهتف باسم من يعتقدون فيه، ويراهم ينذرون عليه ويعظمونه ويرحلون به إلى محل قبره ويلطخونه بترابه ويجعلونه طائفًا على قبره، فينشأ وقد قر في قلبه عظمة ما

يعظمونه، وقد صار أعظم الأشياء عنده من يعتقدونه، فنشأ على هذا الصغير وشاخ عليه الكبير ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير.

بل ترى ممن يتسم بالعلم ويدعي الفضل وينتصب للقضاء أو في الفتيا أو في التدريس أو الولاية والمعرفة أو الإمارة والحكومة معظما لما يعظمونه مكرما لما يكرمونه قابضا للنذور آكلًا ما ينحر على القبور، فيظن أن هذا دين الإسلام، وأنه رأس الدين والسنام.

ولا يخفى على أحد يتأهل للنظر ويعرف بارقة من علم الكتاب والسنة والأثر أن سكوت العَالِم أو العَالَم على وقوع منكر ليس دليلًا على جواز ذلك المنكر.

ولنضرب لك مثلًا من ذلك وهي هذه المكوس المسماة بالمجابي المعلوم من ضرورة الدين تحريمها، قد ملأت الديار والبقاع وصارت أمرًا مأنوسا لا يلج إنكارها إلى سمع من الأسماع وقد امتدت أيدي المكاسين في أشرف البقاع في مكة أم القرى يقبضون من القاصدين لأداء فريضة الإسلام، ويلقون في البلد الحرام كل فعل حرام وسكانها من فضلاء الأنام، والعلماء والحكام ساكتون على الإنكار معرضون عن الإيراد والإصدار.

أفيكون السكوت من العلماء بل من العَالَم دليلًا على جوازها وأخذها وإحرازها؟ هذا لا يقوله من له أدنى إدراك.

بل أضرب لك مثلًا آخر. هذا حَرَمُ الله الذي هو أفضل بقاع الدنيا، بالاتفاق وإجماع العلماء، أحدث فيه بعض ملوك الشراكسة الجهلة الضلال هذه المقامات الأربعة التي فرقت عبادة العباد واشتملت على ما لا يحصيه إلا الله –عَزَّ وجَلَّ– من الفساد، وفرقت شمل جماعات المسلمين، وصيرتهم كالملل المختلفة في الدين بدعة قرت بها عين إبليس اللعين، وصيرت المسلمين ضحكة للشياطين. وقد سكت الناس عليها ووفد علماء الآفاق والأبدال والأقطاب إليها وشاهدها كل ذي عينين، وسمع بها كل ذي أذنين. أفهذا السكوت دليلٌ على جَوَازِهَا؟! هذا لا يقوله من له إلمام بشيء من المعارف، كذلك سكوتهم على هذه الأشياء الصادرة من القبوريين.

الشيخ -رحمه الله- أجاب عن استدلالهم بأن هذا عم وطم: بأن الحق لا يعلم بالتوارث، لا يعلم باتفاق الناس جيلًا بعد جيل، فإن الشيء قد يكون منكرًا ويتوافق عليه الناس، فهذه اعتقاد النصرانية؛ اليهود يعتقدون في أُلوهية عيسى -عليه السلام- ليس قرنًا بعد قرن فقط؛ بل مئات القرون وآلاف السنين وهم يتوارثون هذه العقيدة، هل توارثهم لذلك وسكوت رهبانهم على ذلك، وإقرارهم بذلك دليل على صحتها؟ لا؛ ولذلك نقل الشيء بالتواتر أو تعاقب الناس عليه لا يدل على صحته، نحن لا نتكلم عن أمرٍ دنيوي موجود؛ كأن يتوارث الناس جيل عن جيل أن في بلدة اسمها كذا أو أن رجلًا اسمه عنترة، فالناس يتوارثون ذلك قرنًا بعد قرن، هذا خبر دنيوي، نحن نتكلم عن شريعة ربانية دينية، لا تؤخذ بهذه الطريقة، وإنما الشرائع تؤخذ بالأدلة، فالحق ما قام عليه الدليل، فالدين يؤخذ من الكتاب والسُّنَّة هذا الدليل، ولا يؤخذ من أفعال الناس وإنما يؤخذ بالأدلة من الكتاب والسُّنَّة، فقد يتوارث الناس أمرًا منكرًا فيصبح حقيقةً ثابتة راسخة عندهم من كثرة ما تواردوا عليه، وتعاقبوا عليه، ما رأيكم ذلك دليلًا على صحته؟! والشرك كله واحد عبر الدهور وعبر الأزمان، منذ أن خلق الله آدم يتوارثه الناس أيش؟ قرنًا بعد قرن ومع ذلك يبعث الله الأنبياء ليصلحوا الأحوال، يبعث الله الأنبياء ليصلحوا الأحوال، وليس توارثهم هذا دليلًا.

فلذلك هذه الأمور التي عمت البلاد من الشرك والاعتقاد في الأولياء والذبح والنذور والطواف بالموتى وما شابه ذلك هذا إنما تلقَّفوه تقليدًا؛ تقليدًا للآباء والأجداد، ما تلقَّفوه بناءً على بينة وعلى دليل، وإنما نشأ الإنسان؛ نشأ الصغير عليه وشاخ عليه الكبير، فأصبح الناس يلقون ذلك من باب التلقي لا من باب تلقي من وحي وإنما تلقي هذه العادات التي ورثوها.

وأطم من ذلك أن من ينتسب إلى العلم منهم من يُقر هؤلاء على ما هم عليه، وهؤلاء حكمه حكمهم، ومنهم من يسكت وليس سكوت العَالِم دليلًا على إقراره، قد يسكت خوفًا، قد يسكت ضعفًا، قد يسكت تفريطًا، لكنه إذا أظهر الرضا كفر، لكن قد يكون منكرًا لكنه

لا؛ منكرًا في قلبه وهذا أضعف الإيمان كما قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه»**.

لكن من ترك الإنكار بقلبه كفر، من رأى بأن دعاء الموتى والاستغاثة ليست كفرًا كفر بالله تبارك وتعالى، ولكن لو اعتقد كفره ولم يشارك أهلها ولم يظهر أي فعل يدل على رضاه أو على موافقته لهم فهذا مُفرِّط، إن كان قادرًا على الانكار لا يخشى على نفسه الإيذاء والضرر، فكيف إذا كان هذا العَالِم يزين للناس هذه العقيدة؟! لا شك أن هذا من أعظم البلاء.

ولذلك قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: **«إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلون»**، هؤلاء الأئمة وعلماء أهل الضلال والانحراف الذين يضلون الناس ويخدعونهم، فيقول إن هذا لا يدل؛ ثم ضرب مثالين، مثل أول المكوس الضرائب التي تؤخذ من على الحجيج وعلى الناس، أصبح يتوارثها الناس جيلًا بعد جيل، والعلماء ساكتون، هل سكوت العلماء يدل على أن المكوس هذه التي حرَّمها النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهي من أكل أموال الناس بالباطل يدل على حِلِّها؛ لأن العلماء سكتوا؟! نقول هذا؛ العلماء سكتوا إما أن يكونوا مفرِّطين أو يكونوا عاجزين، فإن كانوا مفرِّطين فهم آثمون، وإن كانوا عاجزين فهم معذورون.

وكذلك بيت الله -عزَّ وجلَّ- الحرام، كان يصلى فيه أربع صلوات لكل صلاة، يقوم الأحناف فيصلون الفجر، ثم انتهى الأحناف قام المالكية فصلوا، ثم إذا انتهوا قاموا الشافعية، ثم إذا انتهوا قاموا الحنابلة، إلى أن جاءت دولة التوحيد فطهرت هذا وجمعتهم على إمامٍ واحد، وهذا لم يزل يتتابع عليه العلماء، ويأتي العلماء حُجَّاجًا ومعتمرين وهم يسكتون، فهل سكوت العلماء على هذا يدل على جواز ذلك؟! فرقوا المسلمين، وجعلوا هذه المذاهب فِرَقًا، يصلوا الفجر أربع مرات، والظهر أربع مرات، ولا يصلي الحنفي خلف المالكي، ولا المالكي خلف الشافعي، ولا الحنبلي خلف الحنفي، هل إقرار العلماء وهذا أمر متوارث يدل على صحته؟ لا شك أن لا يقول هذا إلا من لا يعقل ما يقول.

ولذلك يقول الشيخ: (**هذا لا يقوله من له إلمام بشيء من المعارف**). هذا رجل جاهل ما يعرف شيء، يقول إنه جاز؛ لأن الناس أقروه، فيجعل سكوت الناس دليلًا، الناس إجماعهم ليس بدليل حتى يجمع العلماء، ولا بد وأن يكون هؤلاء العلماء في عصر السلف حتى يكون دليلًا.

فإن قلت يلزم من هذا أن الأمة قد اجتمعت على ضلالة حيث سكتت عن إنكارها لأعظم جهالة، قلتُ: حقيقة الإجماع اتفاق مجتهدي أمة مُحَمَّد -صلى الله عليه وسلم- على أمر بعد عصره.

وفقهاء المذاهب الأربعة يحيلون الاجتهاد من بعد الأئمة الأربعة، وإن كان هذا قولًا باطلًا وكلامًا لا يقوله إلا من كان للحقائق جاهلًا، فعلى زعمهم لا إجماع أبدًا من بعد الأئمة الأربعة، فلا يرد السؤال.

فإن هذا الابتداع والفتنة بالقبور لم يكن على عهد أئمة المذاهب الأربعة، وعلى ما نُحَقِّقُهُ فالإجماع وقوعه محال، فإنَّ الأمة المحمدية قد ملأت الآفاق وصارت في كل أرض وتحت كل نجم، فعلماؤها المحققون لا ينحصرون ولا يتم لأحد معرفة أحوالهم.

فمن ادعى الإجماع بعد انتشار الدين وكثرة علماء المسلمين فإنها دعوى كاذبة، كما قاله أئمة التحقيق، ثم لو فرض أنهم علموا بالمنكر وما أنكروه بل سكتوا عن إنكاره لَما دَلَّ سكوتهم على جوازه.

يعني هنا يقول: طيب أليس هذا إجماعًا؛ والأمة عصمت من أن تجتمع على ضلالة؟ نقول الإجماع الذي هو حُجَّة في دين الله -عزَّ وجلَّ- هو إجماع مجتهدي العصر بعد النبي -عليه الصلاة والسلام-، اذا اجتمع المجتهدون على مسألةٍ حادثة بعد النبي -عليه الصلاة والسلام- فحينئذٍ يكون إجماعًا.

وهذا والعلماء يُحِلون الإجماع بعد عهد الأئمة الأربعة، أي يجعلون الإجماع مستحيلًا لتفرق المسلمين، ولذلك الإجماع المنضبط ما كان في عهد الصحابة؛ في عهد السلف، هذا هو

الإجماع المنضبط، وما بعد تفرقت الأمة، وكان الإمام أحمد وغيره ينكر أن يدَّعي الإنسان الإجماع في مسائل المتأخرين، ويقول: ما أدراه أن الناس اختلفوا؟! لكن لما كان الأمر منحصرًا، وكان العلماء معروفين بأسمائهم وأشخاصهم حينئذٍ كان الإجماع متيسرًا وممكننًا.

فكلُّ الإجماع بعد عصر السلف؛ هذا يشبه أن يكون دعوى، ثم إن هذا الأمر ليس أمرًا حادثًا، يعني بمعنى دعاء الموتى ليس أمرًا حادثًا، هو من صلب الدين، وقد تُوفي في عهد الصحابة -رضي الله عنهم- أعظم أولياء الله بعد الأنبياء، أبو بكر وعمر والصحابة، فلو كان هذا مما يسوغ فعله في الأموات والأولياء لكان الصحابة كأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم أوْلى الناس به، ومع ذلك كل هذا لم يكن في عهدهم، فلا يعرف في القرون الأربعة الأولى؛ لا يعرف قبرٌ أو بناء بني على قبر، وأوَّل من أظهر ذلك هم الرافضة، وهذا كان في آخر الرابع الهجري، وقبل ذلك لا يعرف هذا قط، وما عرف أن قبرًا قد بني عليه بناء، فكيف يُدَّعي الإجماع؟!

إذا كان الإجماع مستحيلًا بعد؛ يعني يستحيل أن يعرف الإنسان الإجماع بعد عهد الصحابة؛ فكيف؛ إذا كان هذا الأمر الذي يُدَّعى فيه الإجماع لم يفعل، بل أجمع المسلمون في عهد الصحابة والسلف على تركه، بل الإجماع يدل على ضد ما استدلوا به، والإجماع على عدم دعاء الموتى الاستغاثة بهم والبناء على القبور، بدلالة أنه لم يقع ذلك في عهد السلف، فهم مجموعون على تركه، لا أنهم مجمعون على فعله، وأما إجماع الناس هذا ليس إجماعًا، إجماع الجُهَّال والعامة، هذا ليس إجماعًا، وإنما الإجماع المراد به إجماع الفقهاء والعلماء.

ثم لو فرض أنهم علموا بالمنكر وما أنكروه بل سكتوا عن إنكاره لَما دَلَّ سكوتهم على جوازه، فإنه قد علم من قواعد الشريعة أن وظائف الإنكار ثلاثة.

- **أولها: الإنكار باليد، وذلك بتغيير المنكر وإزالته.**
- **وثانيها: الإنكار باللسان مع عدم استطاعة التغيير باليد.**
- **ثالثها: الإنكار بالقلب عند عدم استطاعة التغيير باليد واللسان.**

فإن انتفى أحدها لم ينتفِ الآخر.

❖ ومثاله: مرور فرد من أفراد علماء الدين بأحد المكَّاسين، وهو يأخذ أموال المظلومين.

فهذا الفرد من علماء الدين لا يستطيع التغيير باليد على هذا الذي يأخذ أموال المساكين ولا باللسان؛ لأنه إنما يكون سخرية لأهل العصيان، فانتفى شرط الإنكار بالوظيفتين، ولم يبق إلا الإنكار بالقلب الذي هو أضعف الإيمان.

فيجب على من رأى ذلك العَالِمَ ساكتًا على الإنكار مع مشاهدة ما يأخذه ذلك الجبار أن يعتقد أنه تعذر عليه الإنكار باليد واللسان وأنه قد أنكر بقلبه.

فإن حسن الظن بالمسلمين؛ أهل الدين واجبٌ، والتأويل لهم مهما أمكن ضَرْبَةُ لازِب.

فالداخلون إلى الحرم الشريف، والمشاهدون لتلك الأبنية الشيطانية التي فرقت كلمة الدين، وشتتت صلوات المسلمين معذورون عن الإنكار إلا بالقلب كالمارّين على المكّاسين وعلى القُبُوريّين.

ومن هنا يعلم اختلال ما اشتهر عند أئمة الاستدلال من قولهم في بعض ما يستدلون عليه بالإجماع: إنَّه وقع، ولم يُنْكَر، فكان إجماعًا، ووجه اختلاله أن قولهم: "ولم يُنْكَر" رجم بالغيب؛ فإنه قد يكون أنكرته قلوبٌ كثيرة، تعذر عليها الإنكار باليد واللسان.

وأنت تشاهد في زمانك أنه كم من أمر يقع لا تنكره بلسانك ولا بيدك وأنت منكر له بقلبك، ويقول الجاهل إذا رآك تشاهده "سكت فلانٌ عن الإنكار"، يقوله إمَّا لائمًا أو متاسّيًا بسكوته، فالسكوت لا يستدل به عارف.

وكذا يعلم اختلال قولهم في الاستدلال: فعلَ فلان كذا وسكت الباقون فكان إجماعًا، وهذا مُخْتَلٌ من جهتين:

- الأولى: دعوى أن سكوت الباقين تقرير لفعل فلان، لِمَا عرفت من عدم دلالة السكوت على التقرير.
- الثانية: قولهم: "فكان إجماعًا" فإن الإجماع اتفاق مجتهدي أمة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، والساكت لا ينسب إليه وفاق ولا خلاف حتى يُعْرِبُ عنه لسانه.

وهو الآن يقول بأن سكوت العلماء على هذه لا يدل على الإجماع؛ لأنهم قد يسكتون لعدم قدرتهم على الإنكار باليد، وعدم قدرتهم على الإنكار باللسان.

والحقيقة أن الإنكار متعين واجب، من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ولا ينتقل الإنكار بالقلب إلا عند عدم الاستطاعة؛ وعدم الاستطاعة أن يكون عاجزًا عن ذلك، كأن يخشى أن يعاقب أو أن يضرب أو أن يؤخذ ماله أو ما شابه ذلك أو أن يطرد من البلد، الشاهد يخشى الأذيَّة؛ يخشى أن يؤذى وأن يُضرَّ به، حينئذٍ لو سكت لكان معذورًا.

وهنا يقول بأن العلماء هؤلاء الذين يأتون إلى مكة ويرون مقامات أربعة لكل مذهب مقام وإمام، ويصلون لكل صلاة أربع مرات؛ يقول هؤلاء سكتوا لخوفهم، وهذا في الحقيقة نعم، هذا يكون اعتذارًا، لكنَّ السكوت الذي يعذر به الإنسان هو السكوت عندما يخشى الضرر في الإنكار، أما لو كان لا يخشى الضرر وجب عليه الإنكار؛ حتى لو علم أنهم لا يسمعون؛ حتى لو قال هؤلاء يعني لن يستجيبوا يجب عليه الإنكار، كما قال -جَلَّ وعلا- في أهل السبت؛ ماذا قالوا؟ ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف: ١٦٤]. إذن لا بد من الإنكار، لو سكت العَالِم لظنَّ الناس صحة هذا الكلام، لكنه اعتذر عنهم بأنهم كانوا عاجزين، فليس عجزهم عن الإنكار مع إنكارهم بالقلب دليلًا على ذلك، فالسكوت ليس دليلًا.

وهو يمكن ما يسمى بالإجماع السكوتي؛ وهو أن يقال: وهذا القول قاله فلان وانتشر فلم ينكر فكان إجماعًا، نقول هذا الصحيح أن هذا هو الإجماع الذي يمكن ينقل في عهد الصحابة، وهو أن يقول الصحابي قولًا ينتشر عنه ثم لا يوجد من ينكر؛ لأن الصحابة لا يقرون على منكر قط، نعم قد يخاف واحد، قد يخاف اثنان من العلماء لكن أن يسكتوا كلهم هذا لا يمكن.

ولذلك لا يمكن في مسألة من المسائل أن تنقل إجماع الصحابة واحدًا واحدًا، وإنما أظهر مسائل الإجماع المنقولة عن الصحابة والسلف أن ينتشر القول ولا يعرف أحد من العلماء

إنكاره، وهذا ما يسمى عند العلماء الإجماع السكوتي، هو كأنه ينكر الإجماع السكوتي، ويقول ليس هناك؛ لا ينسب لساكت قول حتى يعرب عنه لسانه.

لكن -عمومًا-: القول إذا انتشر في عدد الصحابة كأن يقول ابن عباس قولًا يفتي به في الحَجِّ أو يقوله عمر على المنبر أو ما شابه ذلك وينتشر ولا ينكره أحد من الصحابة فإن هذا إجماع ولا شك، هذا إجماع.

قال بعض الملوك – وقد أثنى الحاضرون على شخص من عماله، وفيهم رجل ساكت– مَالَكَ لا تقول كما يقولون؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم. فما كل سكوت رضى.

نعم ليس كل سكوتٍ رضا، قد يكون الإنسان كارهًا لكن عاجزًا عن؛ أو يعتقد أن إنكاره لا يفيد، وأنهم لا يسمعون.

فإنَّ هذه منكرات أسَّسَها من بيده السيف والسنان، ودماء العباد وأموالهم تحت لسانه وقلمه وأعراضهم تحت قوله وكلمه. فكيف يقوى فرد من الأفراد على دفعه عما أراد؟

طبعًا الملوك كانوا ينتفعون بهذه الشركيات والضلالات؛ لأنهم يأكلون بها أموال الناس بالباطل.

فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه، غالب من يعمرها؛ بل كل من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من عالم أو فاضل أو صوفي أو فقير أو شيخ أو كبير، ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم فيأتي من بعدهم فيجدوا قبرا قد

شيد عليه البناء وسرجت عليه الشموع وفرش بالفراش الفاخر وأرخيت عليه الستور وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو لدفع ضر.

ويأتيه السَّدَنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل وأنزل بفلان الضرر وبفلان النفع، حتى يغرسوا في جبلته كل باطل!

والأمر ما ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج على القبور، وكتب عليها، وبنى عليها. وأحاديث ذلك واسعة معروفة.

فإن ذلك في نفسه منهيٌّ عنه، ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة.

يقول بأن هؤلاء أساسًا أكثر من يرعوا القبور والأضرحة والمقامات هم الملوك والرؤساء ونحو ذلك، فالناس تبعٌ لدين ملوكهم، وكان الأولون من العلماء ربما يزورون هذا القبر؛ -نعم لا ينكرون البناء- لكنهم يزورونه للدعاء له، والاستغفار له، لا لدعائه، ثم جاءت أجيال ورأت القبر مشيدًا، مسرجًا يلقى به الأوراد والأزهار ونحو ذلك، فاعتقدوا فيه الولاية فعبدوه، كما وقع من قوم نوح.

فإن قلت: هذا قبر رسول الله -ﷺ- قد عمرت عليه قبة عظيمة أنفقت فيها أموالٌ جسيمة.

قلت: هذا جهلٌ عظيم بحقيقة الحال؛ فإن هذه القبة ليس بناؤها منه -صلى الله عليه وسلم- ولا من أصحابه ولا من تابعيهم ولا تابعي التابعين ولا من علماء أمته وأئمة ملته.

بل هذه القبة المعمولة على قبره -ﷺ- من أبنية بعض ملوك مصر المتأخرين، وهو قلاوون الصالحي المعروف بالملك المنصور في سنة ثمان وسبعين وستِّمائة، ذكره في "تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة" فهذه أمور دولية لا دليلية، يتبع فيها الآخر الأول.

وهذا آخر ما أردناه مما أوردناه لما عمت البلوى واتبعت الأهواء وأعرض العلماء عن النكير الذي يجب عليهم ومالوا إلى ما مالت العامة إليه، وصار المنكر معروفا والمعروف منكرًا، ولم نجد من الأعيان ناهيًا عن ذلك ولا زاجرًا.

لو استدلوا بالقبة المقامة على قبره -ويبدو أنه كان هناك قبة- قد بناها قلاوون الصالحي من ملوك الأيوبيين سنة ثمان وسبعين وستمائة فهذا لم يفعلها الصحابة، وإنما فعلت بعد، وكذلك ادخال الحجرة، وتوسعة المسجد من وراء الحجرة حتى يكون حجرة النبي محاطة بالمسجد من كلِّ الجوانب هذا فعله العثمانيون وإلا كان سور المسجد هو جدار غرفة عائشة -ﷺ-، وبقي الحال على هذا، وُسِّع كل الجوانب إلا من جانب حجرة عائشة، فدخلت من ثلاث جوانب، ثم لما جاء العثمانيين وسع المسجد من بعدها، فأصبحت محاطة بالمسجد.

لكنها تبقى مستقلة، حجرة النبي -عليه الصلاة والسلام- مستقلة عن المسجد أساسًا، لم تدخل في المسجد لا في حياته ولا بعد وفاته -عليه الصلاة والسلام-، فإنه دفن في بيته، وبيته كان ملصقًا بالمسجد، ثم أغلقت الحجرة بعد وفاة عائشة -رضي الله تعالى عنها-، ثم بنيت أسوارٌ ثلاثة، وبقيت الغرفة هي سور المسجد، ثم بعد ذلك وسع في عهد العثمانيين.

وأما هذه القبة فذكر من فعلها، فهذه الأشياء التي تكون مخالفة إنما فعلت بعد عصر السلف.

فإن قلت: قد يتفق للأحياء وللأموات اتصال جماعة بهم يفعلون خوارق من الأفعال يتسمون بالمجاذيب، فما حكم ما يأتون به من تلك الأمور؟ فإنها مما جلبت القلوب إلى الاعتقاد بها.

لم تزل خدعة يخدع بها القبوريون عموم الناس، يأتون بأناس يقولون هؤلاء أولياء فيفعلون أمور خارقة إدخال السكاكين، والضرب بالعصا أو إدخال النار أو ما شابه ذلك، ويظنون أن ذلك من علامات الولاية، فيعتقد الناس فيهم، هذا لم يزل مشهورًا إلى يومنا هذا.

قلتُ: أما المتسمون بالمجاذيب الذين يلوكون لفظ الجلالة بأفواههم ويقولونها بألسنتهم ويخرجونها عن لفظها العربي فهم من أجناد إبليس اللعين، ومن أعظم حُمُر الكون الذين ألبستهم الشياطين حلل التلبيس والتزيين.

حُمُر جمع حِمار، (**أعظم حُمُر الكون**) يعني غبائهم.

فإن إطلاق الجلالة منفردًا عن إخبار عنها بقولهم "الله الله" ليس بكلام ولا توحيد، وإنما هو تلاعب بهذا اللفظ الشريف بإخراجه عن لفظه العربي ثم إخلاؤه عن معنى من المعاني!

ولو أن رجلًا عظيمًا صالحًا يسمى بزيد وصار جماعة يقولون: "زيد زيد" لَعُدَّ ذلك استهزاء وإهانة وسخرية، ولا سيما إذا زادوا إلى ذلك تحريف اللفظ.

ثم انظر هل أتى في لفظة من الكتاب والسنة ذكر الجلالة بانفرادها وتكريرها؟ أو الذي في الكتاب والسنة هو طلب الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل.

وهذه أذكار رسول الله -ﷺ- وأدعيته وأدعية آله وأصحابه خالية عن هذا الشهيق والنهيق والنعيق الذي اعتاده الذي من هو عن الله وعن هدي رسول الله -ﷺ- وسمته ودله في مكان سحيق.

ثم قد يضيفون إلى الجلالة الشريفة أسماء جماعة من الموتى، مثل "ابن علوان" و"أحمد بن الحسين" و"عبد القادر" و"العيدروس"؛ بل قد انتهى الحال إلى أنهم يَفِرّون إلى أهل القبور من الظلم والجور كعلي رومان وعلي الأحمر وأشباههما.

إنهم يفِرّون إلى أهل القبور من الظلم والجور، يعني إذا وقع جور وظلم يفزعون إلى أهل القبور، نعم.

ولقد صان الله -سبحانه وتعالى- رسوله -ﷺ- وأهل الكساء وأعيان الصحابة -رضي الله عنهم- عن إدخالهم في أفواه هؤلاء الجهلة الضلال، فيجمعون أنواعًا من الجهل والشرك والكفر.

هذا الذكر مجرد "الله الله الله" وما شابه ذلك هذا كُلُّه من البدع والضلالات؛ لأن هذا كلام لا معنى له، ولا بد أن يكون في جملة، فلو قال الله أكبر، الله العظيم، الله الرحيم، وما شابه ذلك لكان له معنى.

فإن قلت إنه قد يتفق مع هؤلاء الذين يلوكون الجلالة ويضيفون إليها عمل أهل الخلاعة، والبطالة، خوارق عادات وأمورًا تظن كرامات، كطعن أنفسهم، وحملهم لمثل الحَنَش، والحية والعقرب وأكلهم النار ومسهم غياها بالأيدي وتقلبهم فيها بالأجسام.

قلت: هذه أحوال شيطانيه وإنك لملبس عليك أن ظننتها كرامات للأموات أو حسنات للأحياء، لما هتف هذا الضال بأسمائهم وجعلهم أندادًا وشركاء لله تعالى في الخلق والأمر.

فهؤلاء الموتى أنت تفرض أنهم أولياء الله تعالى فهل يرضى ولي الله أن يجعله المجذوب شريكًا له؟

إن زعمت ذلك فقد جئت شيئًا إدًّا، وصيرت هؤلاء الأموات مشركين وأخرجتهم -وحاشاهم ذلك- عن دائرة الإسلام والدين، حيث جعلتهم أندادا لله راضين فرحين، وزعمت أن هذه كرامات لهؤلاء المجاذيب الضلال المشركين التابعين لكل باطل، المنغمسين في بحار الرذائل الذين لا يسجدون لله سجدة ولا يذكرون الله وحده.

فإن زعمت هذا فقد أثبت الكرامات للمشركين الكافرين وللمجانين وهدمت بذلك ضوابط الإسلام وقواعد الدين المبين والشرع المتين.

الكرامة هو أمر خارق الذي يجريه الله على يد وليّ، وكرامات الأولياء من معجزات الأنبياء؛ لأنهم إنما نالوا هذه الكرامة بإتباعهم للأنبياء، فكُلُّ كرامة لولي فهي معجزة للنبي، بمعنى دلالة على صدق ما جاء به، وهي خارقة، والكرامة تجري على يد الولي، لا تجري على يد المشرك والضال ونحوه، وكل ما جرى على أيدي هؤلاء الضلال فهذا من أفعال الجنِّ والشياطين.

أما الكرامة فيجريها الله -عزَّ وجلَّ- من غير استدعاء وطلب، ولكن يجريها الله -عزَّ وجلَّ- إما تقوية لإيمانه، أو نصرة للإسلام، وما شابه ذلك، فإذا رُؤيَ في حال هذا الذي يدَّعي الكرامة أنه يتأكل بها أو يُرى منه منكرات فعلمنا؛ نعلم حينئذٍ أن هذه من خوارق الشياطين.

وإذا عرفت بطلان هذين الأمرين علمت أن هذه أحوالٌ شيطانية، وأفعال طاغوتية وأعمال إبليسية يفعلها الشياطين لإخوانهم من هؤلاء الضالين، معاونة من الفريقين على إغواء العباد.

وقد ثبت في الأحاديث أن الشياطين والجان يتشكلون بأشكال الحية والثعبان وهذا أمر مقطوع بوقوعه فهم الثعابين التي يشاهدها الإنسان في أيدي المجاذيب.

وقد يكون ذلك من باب السحر وهو أنواع، وتعَلُّمُهُ ليس بالعسير، بل بَابُهُ الأعظم الكفر بالله، وإهانة ما عظمه الله من جعل مصحف في كنيف ونحوه.

فلا يغتر من يشاهد ما يعظم في عينيه من أحوال المجاذيب من الأمور التي يراها خوارق، فإن للسحر تأثيرًا عظيمًا في الأفعال.

وهكذا الذين يقلبون الأعيان بالأسحار وغيرها.

يعني هذه الأفعال تكون من السحر والشياطين؛ الشياطين تقلب الأعيان وتسحر أعين الناظرين، وتعلم السحر هو بابه الشرك، والكفر بالله جَلَّ وعلا، نعم.

وقد ملأ سحرة فرعون الوادي بالثعابين والحيات حتى أوجس في نفسه خيفة موسى -عليه السلام-.

وقد وصفه الله بأنه سحر عظيم.

والسحر يفعل أعظم من هذا، فإنه قد ذكر ابن بطوطة وغيره أنه شاهد في بلاد الهند قومًا توقد لهم النار العظيمة فيلبسون الثياب الرقيقة ويخوضون في تلك النار ويخرجون وثيابهم كأنها لم يمسها شيء.

بل ذكر أنه رأى إنسانًا عند بعض ملوك الهند أتى بولدين معه ثم قطعهما عضوًا عضوًا، ثم رمى بكل عضوٍ إلى جهة فرقًا حتى لم ير أحد شيئًا من تلك الأعضاء ثم صاح وبكى فلم يشعر الحاضرون إلا وقد نزل كل عضو على انفراده وانظم إلى الآخر حتى قام كل واحد منهما على عادته حيًّا سويًّا.

ذكر هذا في رحلته، وهي رحلة بسيطة.

(**بسيطة**) يعني مبسوطة، يعني طويلة، ليس بسيطة على مفهومنا الشائع.

وقد اختصرت طالعتها بمكة عام ست وثلاثين ومائة وألف، وأملاها علينا العلامة مفتي الحنفية في المدينة السيد مُحَمَّد بن أسعد رحمه الله.

وفي الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني بسنده أن ساحرًا كان عند الوليد بن عقبه فجعل يدخل في جوف بقرة ويخرج، فرأه جندب -ﷺ- فذهب إلى بيته فاشتمل على سيفه فلما دخل الساحر في البقرة قال جندب ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[الأنبياء: ٣].

ثم ضرب وسط البقرة فقطعها وقطع الساحر معها، فانذعر الناس، فحبسه الوليد وكتب بذلك إلى عثمان -ﷺ-.

وكان على السجن رجل نصراني، فلما رأى جندبًا يقوم الليل ويصبح صائمًا، قال النصراني: والله إن قومًا هذا شَرُّهُم لَقَومُ صدق!

فوكل بالسجن رجلًا ودخل الكوفة فسأل عن أفضل أهلها فقالوا: الأشعث بن قيس، فاستضافه فرأى أبا مُحَمَّد -يعني الأشعث- ينام الليل ويصبح فيدعو بغدائه، فخرج من عنده وسأل: أي أهل الكوفة أفضل؟ فقالوا: جرير بن عبد الله، فوجده ينام الله ثم يصبح فيدعو بغدائه، فاستقبل القبلة فقالك ربِّي ربُّ جندب، وديني دين جندب، وأسلم.

وأخرجها البيهقي في السنن الكبرى بمغايرة في القصة، فذكر بسنده إلى أبي الأسود "أن الوليد بن عقبة كان في العراق يلعب بين يديه ساحر فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به، فيقوم صارخا فيرد إليه راسه، فقال الناس: سبحان الله! يحي الموتى! ورآه رجل من صالحي المهاجرين فما كان من الغد اشتمل على سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه، فضرب عنقه وقال: إن كان صادقًا فليحي نفسه! فأمر به الوليد دينارًا صاحب السجن فسجنه" انتهى.

بل أعجب من هذا ما أخرجه الحافظ البيهقي بإسناده في قصة طويلة وفيها: "أنَّ امرأة تعلمت السحر من الملكين ببابل هاروت وماروت، وأنها أخذت قمحًا فقالت له بعد أن ألقته في الأرض: اطلع، فطلع، فقالت: أَحْقِل، فأَحْقَلَ، ثم

تركته، ثم قالت: ايْبَس، فَيَبَس، ثم قالت له: اطحن، فاطحن، ثم قالت له: اختبز فاختبز، وكانت لا تريد شيئًا إلا كان".

والأحوال الشيطانية لا تنحصر، وكفى بما يأتي به الدجال، والمعيار اتباع الكتاب والسنة ومخالفتها.

انتهى ما أوردناه ولله الحمد أولًا وآخرًا، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

يعني الشيخ -رحمه الله- يقول بأن هذه الأحوال الشيطانية التي تجري على مُدَّعي الولاية أنها كُلُّها من أفعال الشياطين وهذا لم يزل يفعله الشياطين مع كل أهل الأديان، القدماء والحديثون، كل هؤلاء تأتي الشياطين فتزين لهم هذه الأمور، وتطير بهم في الهواء، وتدخلهم النار ولا يتضررون، ويدخلون في أجواف الحيوانات فيخرجون، وكل ذلك من أفعال الشياطين.

وإنما الكرامات التي يجريها الله علي يد الأولياء؛ الأولياء هو المتقون المؤمنون، كُلُّ تقيٍّ فهو ولي، كما قال جَلَّ وعلا: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢-٦٣]، فالمؤمن التقيُّ هذا هو الولي. وما أجراه الله على يد المؤمن التقي فهذا هو الكرامة، وأما يجريه الله على أحوال هؤلاء فمن أفعال الشياطين.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على رسول الله.